مجلّة

المجمع الجزائري للّغة العربية

مجلة لغوية علمية تصدر عن المجمع الجزائري للغة العربية

العدد الخامس السنة الثانية جمادى الأول 1428– جوان 2007

مجلة المجمع الجزائري للغة العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

مجلة المجمع الجزائري للغة العربية

مجلة لغوية علمية يصدرها المجمع الجزائري للغة العربية

المدير المسؤول

د. عبد الرحمن الحاج صالح

رئيس التحرير

عثمان شبوب

اللجنة العلمية

د. صالح بلعيد — د. محمد صاري

د. أحمد حساني — د. التواتي بن التواتي

د. بشير إبرير — د. عبد الجليل مرتاض

عنوان المراسلة : 06 شارع العقيد بوقرة ـ الأبيار ـ الجزائر

البريد الالكتروني : aala@wissal.dz

هاتف : 213 21.23.07.90 - الفاكس : 213 21.23.90

* المقالات التي ترد إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أو لم تنشر

* كل باحث مسؤول عن آرائه

محتويات العدد

1 ـ المعجم التاريخي وشروط انجازه

أ.د عبد الرحمن الحاج صالح 9

2 ـ قراءة في مخطوطات المكتبة الوطنية الجزائرية

د. محمد عيسى وموسى 31

3 ـ ظاهرة الإعراب في النحو العربي

د. التواتي ابن التواتي..... 77

4 ـ القياس النحوي في عصر ماقبل سيبويه خلاف أم اختلاف

د. خالد بوزياني 119

5 ـ مظاهر التعليل النحوي عند ابن السيد وابعاده التعليمية من خلال كتاب اصلاح الخلل

د.محمد زهار 139

6 ـ التفكير اللساني عند ابن خلدون وعلاقته بعلم العمران

أ. عمر لحسن 167

7 ـ الجغرافيا والآداب ـ تقاطع المعارف البشرية

أ .د. مازن الوعر 187

8 ـ آراء و انباء

ظاهرة التصويب اللغوي من خلال كتاب (شرح الفصيح) لابن هشام اللخمي

د. محمد بن سمينة 209

المعجم التاريخي وشروط إنجازه *

للأستاذ الدكتور عبد الرحمان الحاج صالح

رئيس المجمع الجزائري للغة العربية

إن مشروع المعجم التاريخي للغة العربية الذي قرّر إنجازه إتحاد المجامع العلمية العربية ليس مشروعا مماثلا للمشاريع الثقافية الأخرى مثل الموسوعات العلمية وموسوعات الأعلام وغير ذلك.ولا يمكن أن يُشبّه بأي عمل معجمي أو موسوعي.فإن لهذا المشروع خصوصيات لا نعتقد أن عملا جماعيا مثل هذا يتصف بها وأهمها هما:أولا ضرورة الاعتماد على مجموعة من المعطيات ـ وهي النصوص الحديثة والتي وصلت إلينا ـ وهي تبلغ من الضخامة في الحجم حدًّا بعيدا جدا.وصفة أخرى يختص به هذا المشروع وهي احتياجه المسيس إلى وسائل عظيمة وناجعة للتصفح الشامل المنتظم لهذا العدد المهول من النصوص عصرًا عصرًا وفي جميع الميادين.ثم احتياجه ثانيا إلى منهجية علمية دقيقة جدا للمقارنة اللغوية الدلالية بين الألفاظ في استعمال المستعملين وفي ميدان معين بين عصر وآخر.لاكتشاف المعاني المقصودة بالفعل في كل هذه المراحل من تطور المعاني.

* ألقي هذا البحث في ندوة اتحاد المجامع العربية بالشارقة في ديسمبر 2006.

وسنتطرق إلى هذين الموضوعين فيما يلي.

1 ـ ضرورة الرجوع إلى كل النصوص

أما الرجوع إلى النصوص هي بالذات لتحرير أي معجم كان التاريخي وغير التاريخي فلا نعرف وسيلة أخرى غيرها ولا يمكن أن **يقوم أي بحث مقام النظر في النصوص فاللغة وضع واستعمال** ولا عبرة إلا بالاستعمال الحقيقي لها.وقد جرت العادة عند المحدثين أن يؤلفوا المعاجم الفنية بالرجوع إلى معاجم سابقة-قديمة وحديثة-أو إلى ما يعرفه مؤلف المعجم من اللغة[1]ولا يفكر أحد إلا القليل أن يجمع مجموعة من النصوص الكافية العدد للاعتماد عليها.وفوق كل شئ لتوثيق ما يُدخله في معجمه من الألفاظ والشواهد والمعاني التي يثبتها لها.فصحة ما يوجد في المعجم تثبت بثبوته في الاستعمال اللغوي.ولا بد من التمييز الصارم من جهة أخرى بين ما هو مجرد اقتراح لمصطلح وضعه مجمع أو أي مؤسسة وبين ما قد دخل في الاستعمال بالفعل.

ومن مزايا مشروع الذخيرة العربية أن تفيدنا بذلك بكيفية دقيقة جدا. فهذا عن المعاجم العادية أما المعجم التاريخي فالاعتماد في إنجازه على النصوص، كل النصوص هو أولى وأحرى.وكيف يتصور أن يرجع الباحثون إلى عينة منها فكأن الاستعمال هو مثل الآراء الاجتماعية يمكن أن يجرى عليها سبر يعتمد فيه على عينة محدودة

1 ـ وكثرت أيضا المعاجم الخاصة بالمصطلحات التي يختلط فيها المستعمل من المصطلح بغير المستعمل مما يضعه صاحب المعجم أو غيره.ولا تُعرف غالبا حقيقة الأمر.

جدا.وليس الأمر كذلك أبدا إذ مفهوم الكثرة والقلة في الاستعمال هو أساسي(ولا بد من التمييز هنا بين كثرة تردّد الكلمة بمعنى من المعاني وبين شيوع الكلمة الجغرافي بين الفئات الاجتماعية).فلا يمكن أن يحكم على كلمة بحكم من الأحكام إلا بمراعاة هذا المفهوم.فمعيار اللغة الموضوعي- غير التعسفي- مقياسه الفاصل هو الشيوع (وعدم الشيوع هو الذي يخرج اللفظ من المعيار إذا لم يكن مصطلحا علميا).

ثم على أي شئ سيعتمد المحرر لمدخل أو عدة مداخل من المعجم التاريخي في تتبعه لتحول المعنى للكلمة الواحدة عبر الزمان؟ أَو سيكتفي في ذلك بكتاب واحد أو عدد محدود من الكتب وقد يكون التحول قد حصل بالفعل قبل صدور هذه المصادر أو بعدها أو ظهر ذلك في كتب أخرى من نفس العصر؟وهل يجوز له أن يدّعي أنه اكتشف تحولا دلاليا في الكلمة المفحوصة وهو لم يتصفح كل ما وصل إلينا من المصادر التي تكون قد احتوت على استعمال معين لهذه الكلمة؟ وقد يلجأ الباحث إلى الحاسوب في بحوثه والسؤال المطروح حينئذ هو:ولماذا لا نجعل هذا الجهاز الجبّار يقوم بمهمته المنوطة به وهو أن يستوعب بالمسح الكامل كل النصوص عصرًا بعد عصر حتى نضمن الشنمولية التي يقتضيها البحث العلمي الموضوعي؟

ومن فوائد المدونة الشاملة أنها مرجع موثوق قبل كل شئ - **تثبت العبارة بثبوتها فيها** - وليس موثوقا فقط بل هو موضوعي لاستيفائه لكل ما يرد في الإستعمال بأكمله أو لجزء عظيم منه.ثم كيف يمكن أن نميز

بين اللغة المشتركة التي يعرف أكثر عناصرها أو الكثير منها أكثر الناطقين باللغة المعنية وبين اللغة الفنية وخاصة الحِرَفية منها إلا بتردد المفردة في أكثر النصوص أو عدم ترددها إلا في بعضها؟

هذا ولا نعني بذلك أن المعاجم السابقة الوجود(غير النصوص)يمكن أن يستغني عنها الباحث المعجمي وخاصة القديمة منها لأنها هي أيضا من المعطيات اللغوية وإن كانت من الدرجة الثانية لأنها معطيات معجمية مرجعها نصوص دُوّنت وأما النصوص فهي المعطيات الأصلية.ولا مناص من الرجوع إلى المعاجم في أي حال من أحوال البحث.إلا أن الرجوع إلى المعاجم لا يُغني عن النصوص أبدا إنما يعتبر الرجوع إليها تكملة ضرورية للكشف عما تحصل عليه العلماء السابقون في أعمالهم المعجمية كتوضيحهم لمعاني المفردات ومعرفة العبارات اللهجية وغير ذلك ويضاف إلى ذلك كتب النحو القديمة ككتاب سيبويه فيما يخص استعمال العرب لأوزان الكلم وكذلك كتب اللغويين الأقدمين ككتب الأصمعي وأبي عُبيدة وابن السكيت وغيرهم.

ويحتاج المؤلف لمعجم من المعاجم مهما كانت،من جهة أخرى،أن يعتمد على مقياس أو مقاييس في اختياره لما سيخصص له.مدخلا في معجمه.ولا يمكن أن يكون هذا المقياس ههنا إلا انتماء المفردة أو العبارة إلى اللغة العربية انتماء كاملا أي انتسابها إلى معيارها ونعني بذلك أن يكون شائعا في استعمال اللغة العربية قديما وحديثا فقط كما

هو الشأن في جميع المعاجم التاريخية الحالية المعتمدة باللغات الأخرى.وهذا لا يُعرف إلا بالرجوع إلى المدونة الشاملة.

فالمعيار العلمي للغة (الموضوعي[2])هو ما كان شائعًا بين الناطقين بها ولا يُعتبر الشاذّ في الاستعمال عن المعيار لأنه لا يمثل استعمال الأكثرين فليس من كلامهم.إنما يكون استعمله عدد قليل بل وقد يكون سمع مرة واحدة من شخص واحد.وليس القياس اللغوي هو المعيار لأن السماع ـ أي الثابت في الاستعمال المدّون في المدونة ـ يُسبّق عليه.فقد تأتي كلمة على غير قياس ـ مثل استحوذ واستروح ولم يأت القياسي منها في الاستعمال بهذا المعنى إطلاقا أو يأتي بقلة لا يُعتد به.وما كان يمكن أن يعرف ذلك اللغوي إلا بالرجوع إلى ما دوّنه هو والعلماء قبله.

وكذلك هو الحال بالنسبة إلى ما يضعه الواضعون من الألفاظ للمسميات أو المناهج العلمية الجديدة.وقد اشتغل مجمع دمشق ومجمع القاهرة بالوضع المنتظم للمصطلحات العلمية منذ أن أنشئا.ولا يدري أعضاؤه إلى الآن ما الذي دخل من ذلك في الاستعمال بالضبط وما هو مدى استعماله.وما يعرفه من ذلك فهو ضئيل جدا متوقف على ما سمعه أو قرأه ليس إلا.ولو كانت تحت تصرفه المدونة الشاملة

2 ـ أما المعيار غير الموضوعي الذي لا يُعتد به في البحث العلمي لإثبات العبارة في المعجم فهو الذي يتم اختياره على أساس انتمائه إلى فئة اجتماعية معينة أو ما يبدو لنحوي من النحاة أنه من الصحيح مع مخالفته للاستعمال.

للاستعمال الفعلي للغة العربية لاستطاع أن يعرف ذلك بالتأكد الكامل وبالموضوعية التي يتطلبها البحث العلمي.

ونحن نتساءل دائما كيف يجوز لهيئة علمية ـ كالمجمع اللغوي- أن تقوم بوضع المصطلحات العلمية دون أن يكون في متناول يدها كل ما يمكن أن تعتمد عليه من النصوص القديمة- كل النصوص ـ غير المعاجم في كل ميدان من ميادين المعرفة أي دون أن ترجع إلى ما هو مستعمل بالفعل في مقابل المفهوم العلمي الذي تبحث عن لفظ تخصصه له؟ فقد يكون دخل في الاستعمال لفظٌ عربي لتأدية هذا المفهوم في بلد من البلدان العربية.ثم إن مسميّات الحضارة الحديثة قد يضع لها الشعب في كل بلد لفظًا قد يكون فصيحًا ومستعملاً بل وملائما تماما.فكيف نعرف ذلك بكيفية موضوعية ونعرف مدى استعماله بالدقة المطلوبة لولا الرجوع إلى المدونة الشاملة؟

وفضائل هذه المدونة اللغوية كثيرة ومتنوعة ولا تتصف بهذا الفضل فقط فصفتها هي أنها ضرورية لا يمكن بحال من الأحوال أن يستغني عنها أي باحث وبذلك يجب أن تسبق في الزمان أي عمل لغوي أيا كان ولاسيما المعجم التاريخي.ومشروع الذخيرة العربية الذي بدئ في إنجازه يستجيب تماما لما يحتاج إليه الباحث في اللغة وتاريخ اللغة وخاصة الفريق من العلماء الخبراء الذين سيوكل إليهم التحرير لمداخل المعجم التاريخي.

ثم إن هذه المعلومات والكثير أمثالها لا يمكن أن يُتحصل عليها كمعطيات أي كأحداث وظواهر قبل أي تحليل إلا بالجمع والرصد والتدوين وبما أن حجمها ضخم جدا- يفوق الملايين من الألفاظ المكررة فلا بد حينئذ أن تجتمع على جمعه وتدوينه الدول العربية وهذا قد تم إقراره وتنفيذه بقرار صدر من جامعة الدول العربية في 2004/09/14.

وحظ هذه الذخيرة أنها ستنجز في عصر الحواسيب وبفضل هذه الأجهزة الإلكترونية العجيبة.ولا بد من الإشارة بهذا الصدد أن هذه الذخيرة ليس دورها أن تختزن فيها آلاف الآلاف من الصفحات فهي ليست بنك معلومات فقط بل هي قاعدة معطيات آلية ومعنى ذلك أن الحاسوب هو الذي سيتكفل،كما قلنا،بالبحث عما فيها والمسح الشامل عما تحتويه بحسب رغبة الباحث فهو يسأل أي سؤال شاء والذخيرة تجيبه بسرعة الإلكترون.والحاسوب يحصي عدد المرات التي تظهر بها المفردة في كتاب واحد أو عدة كتب وهو الذي يكشف عن وجودها في كتاب قديم أو عدة كتب ويجمع للباحث جميع السياقات التي وردت فيها أو بعضها في نص أو عدة نصوص في عصر أو عدة عصور وغير ذلك.

ويتمكن الدارس لتطور معاني اللفظة المعينة وهو ممن سيساهم في إنجاز المعجم التاريخي من التصفح المنتظم الشامل للتغيرات الدلالية

التي أصابتها من عصر إلى آخر أو من فترة إلى أخرى.وهذا المسح الشامل لجميع النصوص هو الذي سيضمن موضوعية المعلومات مع العمق في البحث وبالتالي الدقة الكاملة وهو ما يصبو إليه كل باحث نزيه وطموح.

2 ـ منهجية البحث الخاصة بالتدوين وحيازة النصوص وتنظيم التصفح للمعطيات

1 ـ إن **لتدوين** المعطيات اللغوية في عصر الحاسوب حاليا مناهج وأساليب خاصة يجب الاعتماد عليها مع الشئ الكثير من التكييف بالنسبة إلى اللغة العربية. فالنصوص هي نصوص عربية قديمة وحديثة ومصدرها مؤلفون من البلدان العربية.فهذا يحتاج أن يُعتد به لتنظيم البحث وتسهيله.وذلك كتوزيع الإنتاج على عصور وفترات ثم كل فترة زمانية إلى ميادين أو حقول.وكانتقاء المؤلفات فيبدأ في البداية بكل ما نشر من التراث بتحقيق علمي.وأما العصر الحديث فما تقرره لجنة من الخبراء على مقاييس (كشهرة الكتاب لقيمته أو ذيوعه عند أهل الاختصاص أو كتاب أُجمع على فائدته التعليمية أو الثقافية وغير ذلك).وكذلك البحوث القيمة المنشورة في المجلات المعروفة والمحاضرات الجامعية المنشورة وغير ذلك.وللتدوين جوانب تقنية وتنظيمية وقد تم اتخاذ بعض التدابير والوسائل بالنسبة للذخيرة العربية فليراجع الملحق المرفق بهذا البحث.

أما اختيار المداخل فقد سبق أن أشرنا إلى بعض المقاييس التي ينبغي أن يعتمد عليها.فمن ذلك ضرورة ذكر كل المفردات الفصيحة الواردة في المدونة مع استيفاء العلاج لها وبسط القول بالنسبة للمفردات الهامة وهي الأسماء والأفعال الكثيرة المعاني الشائعة في اللغة العامة أو كاصطلاح.

ويعتمد أيضا في معرفة هذه المداخل الهامة التي تستحق أن يبسط فيها القول على تردّد الكلمة-من غير حروف المعاني- وشيوعها الواسع في ميدان معيّن وعصر معين.

ومن الكلم ما يكثر ورودها في كل نص تقريبا وهي حروف المعاني أولا ثم النواسخ والظروف وعدد من الأسماء والأفعال العامة المدلول كقال وعَلِم ورأى وغير ذلك.وستتكرر هذه الكلم بملايين المرات لأنها أدوات الخطاب لا يوجد كلام إلا وفيه شئ منها.وعلو تردّدها في الكلام لا يدل على شئ آخر غير ذلك.

2 ـ منهجية البحث عن تاريخ المفردات وتصفح المعطيات

إن المقصود من المعجم التاريخي العربي **هو التعرف على التحوّل الزماني لمفردات العربية** من حيث معناها ودخول مفردات جديدة كمصطلحات علمية أو حرفية أو ألفاظ حضارية وتحديد معانيها واختفاء بعض المفردات وغير ذلك.

أ- أهم ما يجب إثباته

1- إثبات العلاقة الدلالية بين المعنى الأساسي والمعاني الفرعية لجذر كل مدخل ومعاني الألفاظ للغات السامية التي تحتوي على نفس الجذر أو ما يقاربه.

2 - إثبات استمرار اللفظ في الاستعمال بنفس المعنى أو بتحويل معناه الأساسي إلى معنى آخر والاستشهاد لذلك بشواهد تؤخذ من المدونة.

3 - تفسير التحويل بإحلاله محله من التحويلات التاريخية الاجتماعية والحضارية والثقافية وغيرها.

4- إثبات ظهور كلمة لأول مرة كلفظ مولّد على ممرّ العصور(مثل ما أتى به الإسلام) وكذلك ألفاظ الحضارة والدخيل.وبيان تاريخ أول نص ظهر فيه.ويميز في كل ذلك بين اللفظ من اللغة العادية والمصطلح.وبيان ذلك بذكر المراجع ومصدرها ومكان صدورها.ويمكن أن يكون أُحدث بالاشتقاق من كلمة أو أصل عربي على قياس كلام العرب أو أي طريقة أخرى أو اقتبس من لغة أخرى ولا بد من ذكر أصله في تلك اللغة ومعناه المعروف فيها وما إذا حصل تحويل لمعناه الأصلي.

5 - إثبات خروج اللفظ من الاستعمال كليا أو جزئيا مع ذكر تاريخ حصول ذلك (العصر غالبا).

وفي جميع هذه الأحوال يحاول المحرر للمدخل أن يفسر مختلف هذه الأحداث بقدر الإمكان ولا بد من الإتيان بالدليل على ما يقوله في

جميع الحالات من شهادة أو وثيقة أو حدث تاريخي.ويبين إذا كان ذلك افتراضا فيؤيد ذلك بالشواهد.

ويميز كذلك وفي جميع الأحوال بين ما ينتمي إلى اللغة المشتركة التي يعرفها جمهور الناطقين أو لغة علمية أو أصحاب مهنة أو عمل معيّن.

أما فيما يخص الكلم من حيث اللفظ لا المعنى فبما أن معجمنا هذا يخص العربية الفصيحة فكل ما أصيب به اللفظ من التغيير يكون غالبا سببا في ابتعاده عن الفصيح وانتمائه إلى عامية من العاميات إذا كان التغيير كما قلنا يخرج اللفظ عما هو معروف من صيغ كلام العرب وتراكيبهم.ونعتقد أن مثل هذا الحادث يستحق أن يذكر في المعجم وذلك لمعرفة تاريخ التغيير على الأقل(ومن المفيد أن تعرف الأقاليم التي حصل ذلك في لغة أهلها).

وقد لا يخرجه التغيير من كلام العرب ويكون لغة لم تشع فلا بد حينئذ من اعتباره من كلام العرب ويجب حينئذ وصف هذه اللغة وذكر الجهة أو القبيلة التي كانت من كلامها إن كانت لهجية محضة(وفصيحة)وإن اشتركت عدة أقاليم وقبائل في استعمالها.

ب- التحقيق في معاني المفردات وتحولها الزماني

- ترتيب المعطيات بجعلها تحت تصرف الباحث

لابد فيما يخص ميدان الدلالة من مراعاة هذه الحقيقة:

لا يكون لأي كلمة أي معنى إلا بسياقها ولا يتضح معناها المقصود بالفعل إلا بسياقها واعتمادًا على هذه الحقيقة الجوهرية فأول عمل سيقوم به الخبراء هو أن يُوضع لكل مدخل تقرر تحريره: **ملف كامل لجميع سياقاته** يسمى **بملف الكلمة**(Dossier de mot=Word File) وهو طريقة معمول بها في أيامنا هذه بالنسبة لصناعة المعاجم ووظيفة هذا الملف الأساسية هي أن تجعل تحت تصرف المحرر للمدخل وفي متناول يده:

1.**كل السياقات التي وردت فيها الكلمة** المقصودة بالبحث بحسب موضوع الدراسة:

- في كتاب معين أو عدة كتب لمؤلف واحد.

- في نصوص تنتمي إلى عدة مؤلفين في ميدان واحد وفي فترة معينة.

- في جميع النصوص المنتمية إلى عصر واحد.

2. **معلومات تخص الميدان من النشاط أو المعرفة إذا لم يُعلم وموضوع النص وغرض صاحبه منه.**

3. **معلومات إحصائية تخص الكلمة:** ترددها في كل حالة من الأحوال السابقة.

ويتكوّن كل نص من جزازات متسلسلة تجمع فيها:

1- السياقات القريبة لكلمة ا المتكونة من ثلاثة أسطر تكون وردت فيها الكلمة ا بذكر مرجع كل سياق وعنوان النص والجزء والصفحة

وموقعه من المجموع (في فهرس الكتاب).ويجب أن تُبرز الكلمة في كل جزازة بنوع من الكتابة ولا تكون الصفحة فيها مكدسة الكتابة.

2 ـ وتليها السياقات المتجاوزة للأولى (من 10 إلى 20 أسطر) وينبغي أن تقرر في الوقت المناسب الصورة التي ستكون عليها هذه القوائم وذلك بالتعاون بين المهندسين في الحاسوبيات.

3 ـ السياقات التي وردت فيها الكلم ب،ج،د الخ وهي التي وقعت موقع الكلمة ا.

ـ طريقة اكتشاف المعنى وإثباته من السياقات

سنتعرض فيما يلي إلى طريقة في استخراج المعاني من سياقات المفردات.فقد كنا قد استعملنا هذه الطريقة في بحوثنا في السبعينيات وخاصة في اكتشاف المعاني التي كان قصدها علماء النحو الأولون مثل سيبويه وشيخه الخليل.وعرضناها على القراء في مقدمة لكتابنا الموسوم"السماع اللغوي عند العرب"[3].ومن الألفاظ التي حللناها بهذه الطريقة نذكر لفظة "الفصاحة" ومشتقاتها في استعمال سيبويه لها خاصة.وسميّناها بطريقة "المقايسة الدلالية".

و مما يلجأ إليه اللغويون الغربيون الآن لاكتشاف معاني المفردات بلغاتهم فهذه الطريقة التي اعتمد عليها محررو" ذخيرة اللغة

3ـ وكذلك في بحث قدمناه في مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة في 2005 (عنوانه:تحديث أصول البحث العلمي في التراث العلمي اللغوي العربي).

الفرنسية"[4] (Trésor de la Langue Française) وهم يصرحون أنها طريقة موقعية (Distributionnelle) بُنيت على النظر فيما يحيط بالكلمة من الوحدات ولا يزيدون على ذلك شيئا.وأما ما اعتمدنا عليه فهي طريقة أيضا موقعية.إلا أن المبدأ الأهم في ذلك عندنا هو البحث عن **الكلمة أو الكلمات** التي أتت في نفس السياق(في موقع الكلمة ا)ثم البحث عن السياقات التي تقع فيها هذه الكلمات القائمة مقام ا.فهذا يتجاوز قسمة المواقع المجرّدة.ثم وقوع كلمة أخرى في موقعها غير كاف حتى يتساوى ما سميناه بالسياق القريب لكلا الكلمتين وهما الجملتان اللتان وردتا فيهما مع تساوي السياق المرجعي الذي تنتمي إليه الجملتان المكتنفتان لهما.وللنظر في ذلك فسنمثّل بما قمنا به من المقارنة والمقايسة بالنسبة إلى مشتقات كلمة فصاحة في كتاب سيبويه (وهو مستخرج من الكتاب المشار إليه(السماع اللغوي)).

4 ـ كان المشرف على إنجازه العالم اللغويّ:قةِ .ذ وأنشئ لهذا العمل مركز خاص في مدينة Nancy بفرنسا.

نظائر من النصوص تتضمن عبارة "فصحاء العرب" في كتاب سيبويه

سمعنا	العرب الفصحاء	يقولون... أو يجعلونها زايا خالصة	111/1و44/2 426/2
سمعنا	ذلك من فصحاء العرب	لا يعرفون غيره	2/2
سمعنا	وقد فتح قوم فصحاء	فقالوا...	276/2
سمعنا	فصحاء العرب	يقولون...أو أنشدوا	477/1 و47/2 و148

يبدو من هذا التناظر للنصوص أن كل العبارات التي تحتوي على مادة أ.ف.ص.ح (صفة "الفصحاء العرب") لها سياق مرجعي واحد وهو السماع لأقوال هؤلاء العلماء (السماع والمسموع) فإذا نحن بحثنا في الكتاب عن المواقع التي يكون لها نفس السياق تحصلنا على مجموعة كبيرة جدا ـ تغطي كل الكتاب ـ وتأتي في كل صفحة وتأتي فيها لفظة "العرب" وهم المسموع منهم أو ضمير "هم" الدال عليهم ثم على مجموعتين محدودتين تأتي في موقع المسموع في إحدى المجموعتين: "مَنْ تُرْضَى عربيتُهم" وفي الأخرى: "الموثوق به أو بهم أو بعربيتهم" وهما كالتالي:

سمعنا	العرب	الموثوق بهم	198/1 و405
سمعنا	ـــــــ	من نثق بهم من العرب يقول	269/2
سمعنا	.	من يوثق من العرب يقول	199/2
أنّ ناسًا	من العرب	يوثق بعربيته	63/1
أنا سمعنا	من	يوثق بعربيته	77/1
سمعناه	ممن	يوثق بعربيته	36/ 1 و 158
سمعنا	ممن	نثق به من العرب	269 /2
سمعناه	من بعض العرب	الموثوق بهم	210-161/1 375-263
بلغني	عن العرب	الموثوق بهم يقولون	381/1
حدّثني بذلك أبو الخطاب	عمن	يوثق من العرب	275/1
وقال ناس	ـــــــــــ	يوثق بعربيتهم	264/2
أن ناسًا	من العرب	يوثق بعربيتهم	63/1
لم تكن	العرب	يوثق بعربيتهم تقوله	226/1
وزعم أبو الخطاب أنه سمع		من يوثق به من العرب يقول	48/2
حدثنا بذلك يونس	عمن	يوثق به من العرب	255/1

أحصينا 45 عبارة في كتاب سيبويه جاءت على هذه الصورة: سماع أو قول سمع من عربي أو مجموعة محدودة من العرب ممن يوثق بعربيتهم.

وهناك سياق مرجعي مماثل لهذا إلا أنه يحتوي على نفي السماع لمسموع معين أو قلته. وهذه أمثلة منه:

- بحروف غير مستحسنة ولا كثيرة في لغة من ترتضي عربيته (404/2).
- ولا أعلم أحدا يميل هذه الألف إلا من لا يؤخذ بلغته (264/2).
- وهذا بعيد لا يتكلم به العرب (402/2).
- إلا أنه ليس يقوله أحد من العرب (47/2).
- ليس أحد يقول يافلا(33/1).
- لا تتكلم به العرب (95/2).
- هذا لا يكون وهو خطأ لا تقوله (95/2).
- لم تكن العرب الموثوق بعربيتهم تقوله (226/1).

يمكن أن نستنتج من العمليات الحملية (حمل النظير على النظير فيما يخص النصوص) مايلي:

1- إن تكافؤ المواقع الدلالية اللفظية (على أساس تكافؤ السياق المرجعي في المجموعات المذكورة) يلزم منه تكافؤ المقاصد. فالمقصود من "فصحاء العرب" هو نفس ما يقصده سيبويه ممن

"ترضي عربيتهم" و"العرب الموثوق بهم (أو) بعربيتهم". إذ تقع كل من هذه العبارات موقع الأخرى فكل هؤلاء هم جماعة معينة من العرب.

2 ـ إن سيبويه لا يستعمل هذه الأوصاف باطراد فقد لاحظنا أن المسموع إذا خرج عن الوجه الذي يكثر على ألسنة العرب وسمع من عربي واحد أو من أفراد قلائل فإن كانوا من الفصحاء أو الموثوق بعربيتهم نبّه على ذلك صاحب الكتاب بهذه الألفاظ في أحيان كثيرة (لا دائما). أما إذا كان المسموع كثيرا في الاستعمال فلا يذكر سيبويه هذه الأوصاف ويكتفي بذكر لفظة "العرب" فقط وهو الغالب عند ذكره لما سمعه إلا أن هذا يقتضي أن يكون هؤلاء هم بالضرورة فصحاء وممن ترضى عربيتهم ويوثق بعربيتهم.

3 ـ ويلزم من ذلك أيضا أن تكون هناك جماعة من العرب ويعتبرها النحاة ومن عايشهم من غير النحاة الميزة الأساسية لغير الفصيح من العرب.

ويمكننا أيضا أن نستفيد من النظر في النصوص بالنظر في كيفية استعمال العلماء اللفظة المعيّنة من خلال ما استعملوه من أساليب التعبير فهاهو ذا الجاحظ وأسلوبه غني بالصور البيانية التي لابد أن تكون لها دلالة. فسنلجأ في النص التالي إلى التزويج بين الشيء وضده وهذا قد يمكننا من أن نعرف بالضبط ما يقصده الكاتب من لفظة معينة ترد

في كلامه. يقول: "فمن زعم... جعل **الفصاحة واللكنة 1 والخطأ والصواب 2 والإغلاق والإبانة 3 والملحون والمعرب سواء 4** "البيان، (162/1

فالأزواج 2ـ3ـ4 التي تتضمن كل واحد منها ضدّين هي نوع من الإطالة (redundancy) أو التثنية بالنسبة إلى الزوج1 ومن ثم يتضح المقصود: فالفصاحة تقابلها اللكنة أولا ويحرّرها الجاحظ هو بنفسه في مكان آخر: "يقال في لسانه لكنة إذا أدخل بعض حروف العجم في حروف العرب وجذبت لسانه العادة الأولى إلى المخرج الأول" (البيان،1/39-40)[5] وهي بمنزلة الخطأ والإغلاق والملحون كما أن الفصاحة بمنزلة الصواب والإبانة والمُعرَب. قال الجاحظ ـ الذي هو من هو وكان تتلمذ على أكبر النحاة واللغويين العرب وعاشرهم معاشرة طويلة فلاشك أنه لاحظ كيف كانوا يتعاملون مع العرب الذين كانوا يريدون الأخذ منهم.

ويستخلص مما مضى أن الفصيح من الناطقين ليس هو بالضرورة البليغ بل هو الناطق الذي لم يتأثر بلغة أخرى غير لغة منشأه فلا يلحن. فهذه فصاحة لغوية محضة. وينطبق ذلك على جميع اللغات. أما ما يخص العربية فمرجع النحاة هو لغة القرآن ولغة العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ولم تتغير لغتهم.

5 ـ ويقول أيضا: "اللكنة أن تعترض على الكلام اللغة الأعجمية" (578/2).

3ـ مبادئ خاصة بتحرير مداخل المعجم

ـ مبادئ عامة:

يكوّن كل مدخل في معجم تاريخي بحثا كاملا حول الكلمة التي يتناولها ووحدة محررة ومرتبة على ما تقتضيه أصول التحرير للبحوث العلمية.ويكون لها لزومًا صفة البحث الموسوعي إلا أنه لا يخص من المعلومات الموسوعية إلا الجانب اللغوي للكلمة وخاصة الدلالي منه والتاريخي خاصة في مثل معجمنا هذا.ويجب أن تذكر فيه جميع المراجع والمصادر التي رجع إليها المحرر ويؤدي بأمانة كاملة ما يرويه عن غيره من العلماء من الكلام والتحديدات والشروح.

وفيما يخص مدلولات الكلمة فلها ثلاثة أحوال:

ـ إما أن تكون الكلمة قد انقرضت وخرجت تماما عن الاستعمال وخاصة في زماننا فينبغي أن تذكر مدلولاتها المختلفة بالشواهد المناسبة كما وردت في المدونة.

ـ وإما أن تكون موجودة في الاستعمال الحالي وعندئذ يبدأ بذكر مدلولاتها الحالية وخاصة بالمدلول الأساسي.وهذه الحالة تشتمل على أكثر الكلم العربية.فتحديد معناها الحالي ومعانيها هو الذي يبدأ به قبل أي شئ آخر.

ثم يخوض المحرر في العرض للمعاني القديمة التي كانت لهذه الكلمة من خلال ملف الكلمة على الطريقة المقترحة أو أي طريقة دقيقة أخرى.ويقيم بعد ذلك مقارنة بين معاني الجذر العربي ومعاني الكلم السامية المقابلة لها.

ويكون تتبعه لتحول المعنى الأقدم عصرا بعد عصر إن حصل تغيير بالفعل وفي كل الأحوال لا يُصرح بشئ إلا مع اعتماده على شواهد يُعرف مرجعها.

وإن كان مصطلحا علميا فلا بد أن يذكر المقابل باللغتين الإنكليزية والفرنسية وباللاتينية العلمية إن وجد.

وفيما يخص الدخيل فلابد من إثبات الأصل من اللغة المقتبس منها ثم يبين المحرر ما حصل من التغيير في اللفظ ومن التكييف في المعنى إن حصل ذلك.ويعتمد في التغيير الصوتي على ما أثبته العلماء من أهل الاختصاص من قوانين أو نزعات في تكييف الحروف اليونانية والفارسية وغيرهما عند تعريبها.

هذا ولا يهمل المحرّر من المعاني المجازية وهي نوعان: ما كثر فصار معنى معجميا أو ما يقرب من ذلك وما لا يزال يشعر به أنه مجاز.وكذلك هي جميع الصور البيانية الأخرى.وهذا يحتاج أن ينبّه عليه في جميع الأحوال .

3ـ مبادئ التعريف المعجمي وأوصاف المسمى

تحدد معاني الكلمات في المعاجم بحسب ماهية مدلولها. فالتحديد يتنوع إلى حد كبير وقد أراد أرسطو أن يجعل التحديد على صورة واحدة وهي أن يذكر الجنس القريب للمسمى ثم الفصل أو الفصول التي تميزه عن أفراد جنسه.وهذا جيد وإن كان غرض أرسطو يفارق

تماما غرض اللغوي(وهو الوصول إلى جوهر الشئ).ولا ينبغي مع ذلك أن يقتصر على التحديد بالجنس والفصل في كل الأحوال ولاسيما في مدلولات الحياة العملية والتقنيات والعلوم ومختلف الفنون.فقد يحتاج في ذلك إلى التحديد الإجرائي وهو لا يُعرّف ذات الشئ أو الشئ في أوصافه الذاتية بل يلجأ فيه إلى تحديد كيفية نشوئه وذكر العمليات المرتبة التي يتولد منها وذلك كالكيانات الرياضية والمنطقية وما إلى ذلك.

ويستحسن أن يلجأ إلى تحديد العلماء من أهل الاختصاص فيما يخص المفاهيم العلمية والتقنية كتحديدات علماء الحيوان والنبات وغيرهما.

وبعد ذلك ينبغي أن يشار إلى تردد الكلمة بذكر معدّل تردّدها بين عدة نصوص وبالنسبة إلى عصر واحد وفوق كل شئ بالنسبة إلى زماننا ها.كما يشار أيضا،وهو مهم جدا،إلى درجة الشيوع الجغرافي في البلدان العربية وفي كل بلد إن أمكن وهذه معلومات يُتحصل عليها من المدونة بعمل الحاسوب[6].

وفي الأخير تُذكر جميع المرادفات للكلمة إن وجدت وكذلك ما سمي قديما بالأضداد.ويختم بذكر الدراسات اللغوية التي خصصت لهذه الكلمة إن كان لها وجود.

---

6 ـ ونؤكد على ما قلناه:فمن المعلوم أن المدونة هي محوسبة ومعنى ذلك أنها قادرة بفضل الحاسوب أن تستجيب عن كل طلب يقدمه لها الباحث وتستطيع ذلك بفضل البرامج الحاسوبية المهيئة لذلك.

قراءة في مخطوطات المكتبة الوطنية الجزائرية

الحلقة الثـانيـة

مخطوطات متن الاجرومية وشروحها

د. محمد عيسى وموسى

جـامعي

تبعا للبحث المنشور فـي العدد 3 جوان 2006, نواصل في هذا العدد متابعة الكشف عن معلومات من خلال القراءة في مخطوطات المكتبة الوطنية الجزائرية للعلماء الذين قاموا بمجهودات معتبرة ، واهتموا بموضوع النحو فاشتهر كثير منهم، احتلوا مكانة رفيعة في مجال التأليف والتدريس، وأسهمت مراكز معروفة في زواوة وبجاية وقسنطينة وبسكرة وهوارة وغيرها فاعتنت بذلك عناية فائقة وكان لعلمائها دور الريادة ولا تزال تلك المواطن شاهدة إلى اليوم على وجود فكر وعلم في المـاضي طواه النسيـان، هو فـي حـاجة اليوم إلـى عـمل جاد هادئ

طويل النفس يقوم بالتنقيب من أجل الكشف عن معالمه وآثاره، إن في ذلك شيء من إسهامنا في العمل العلمي الجاد في عصور وأزمنة خلت كان فيها الاشتغال بالعلم من قبيل المغامرة والمخاطرة بالنفس والنفيس.

وإذا نظرنا اليوم إلى الموضوع من هذه الزاوية فإنه يتعين علينا القيام بجهد مضاعف من جانبنا أيضا في سبيل الوصول إلى عمق ما أصبح في حكم المفقود على أننا نشاهد ونلمس ـ أحيانا كثيرة في لا شعورنا ـ تأثيراته في لساننا وملبسنا ومأكلنا وفي سلوكنا وفي شتى أنواع الفنون والثقافة والعلوم عندنا ، ولكننا نعجز عن تفسير الظواهر حين يُطالب منا إقامة الدليل واعطاء البراهين التي يفرضها منطق البحث العلمي.

إن سبيلنا إلى ذلك هو ما نملكه من تراث مخطوط في طياته أسرار لا تزال في حاجة إلى الكشف عنها إنه الخزان الذي حفظ ذاكرتنا ، وعمل على انقاذها من الضياع وفيه الأدلة القطعية عن حجم الثروة الخفية التي لم يشمل بعدُ حقولها التنقيب لاستخراجها، واستنطاق نصوصها وتوظيفها.

في هذه الحلقة اطلالة على موضوع النحو والنحاة في خزانة مخطوطات المكتبة الوطنية.

إن هذه المخطوطات التي نسلط عليها الأضواء في عصرنا هذا الذي ساد فيه إعراض الباحثين عن مخطوطات إنها تستنجد إلى العودة مجددا إلى المخطوط والتعريف بمحتواه، إنه يحمل إلينا بين سطوره رسائل عليها براهين عن وجود فعلي لحركات علمية وفكرية يمكنها إن تم استثمارها أن تكشف عن تاريخ ومسار تلك الحركة وما تركته من تأثيرات في المجتمع الجزائري من خلال متابعة علمية متأنية في آثار ورجال تلك الحركة والحواضر التي احتضنتهم في عصور خلت وما شهدته من ازدهار حينا وانتكاسا أحيانا أخرى.

إن البحث في التراث الجزائري المخطوط في موضوع النحو ينبغي تناوله في هذا الاطار لأسباب متعددة، منها الحاجة إلى تفسير ظاهرة اهتمام الجزائريين في الماضي بالنحو، وظاهرة وجود المراكز المذكورة التي اشتهرت بمساهمة علمائها في التأليف والتدريس والنقل، فأصبحت محط رحال طلاب العلم والمعرفة الوافدين إليها من مكان بعيد، ومنها العمل ضمن جهود كل الأطراف التي تسعى إلى احياء التراث الحضاري الوطني في كل أشكاله ومضامينه.

وفي هذا السياق نتناول مقدمة الاجرومية في النحو، وقد أخذت حظا وافرا من اهتمام الجزائريين بها من خلال المخطوطات المحفوظة

في المكتبة الوطنية الجزائرية. وشاع استعمالها بالنقل والشرح والتعليق. ندرسها في قسمين:

يبحث القسم الأول في مخطوطات متون الاجرومية في المكتبة الوطنية الجزائرية.

ويبحث الثاني مخطوطات شروح الاجرومية عموما وشرح محمد الصباغ القلعي نموذجا.

القسـم الأول

مخطوطات متون الاجرومية في المكتبة الوطنية الجزائرية

عاش ابن آجروم في الثلث الأخير من القرن السابع والثلث الأول من القرن الثامن (672 ـ723) اشتهر بكتابه في النحو مقدمة ابن آجروم في اللغة العربية، احتلت مكانا مرموقا وعمت شهرتها المغرب والمشرق.

وقد انتشر تداول الاجرومية في مجالس العلم في الجزائر نتيجة لاهتمام النحاة بالمتن مما يوحي بأن الاجرومي كان يحظى بمكانة متميزة، وسيتضح ذلك أكثر عند تناول الشروح في القسم الثاني من هذا البحث.

سيكون تناول الموضوع بوصف مختصر لمميزات المتون المخطوطة في المكتبة الوطنية مع ذكر أرقامها والتعريف بجوانب منها مرتبة في عرضها حسب تاريخ نسخها حين توفره، ونرفق الوصف بنماذج مصورة مختارة.[1]

اللوحة رقم 1

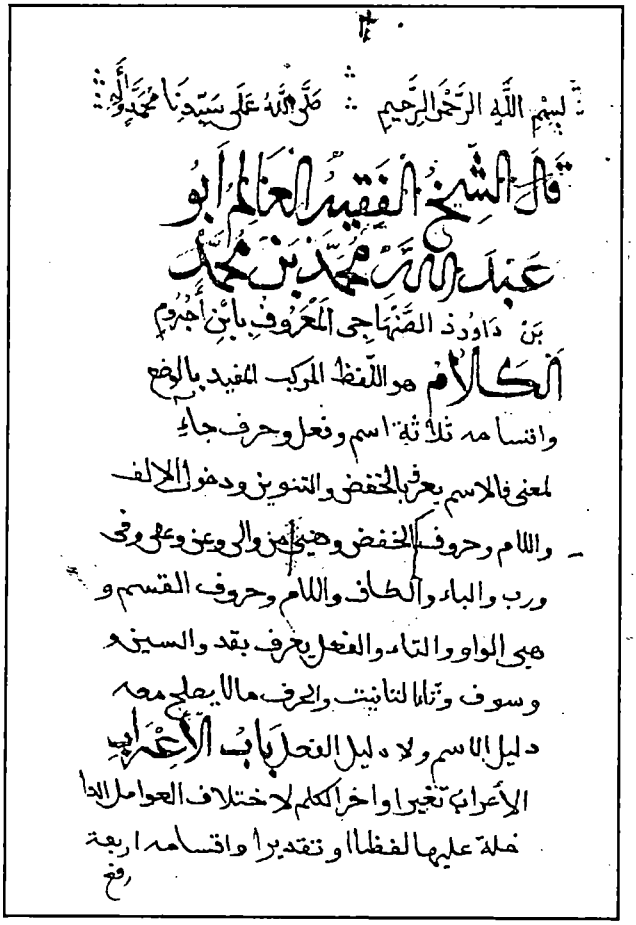
بسم الله الرحمن الرحيم ... صلى الله على سيدنا محمد وآله ...

قال الشيخ الفقيه العالم أبو
عبد الله محمد بن محمد
بن داود الصنهاجي المعروف بابن آجروم
الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع
وأقسامه ثلاثة اسم وفعل وحرف جاء
لمعنى فالاسم يعرف بالخفض والتنوين ودخول الالف
واللام وحروف الخفض وهي من وإلى وعن وعلى وفي
ورب والباء والكاف واللام وحروف القسم وهي
الواو والتاء والفعل يعرف بقد والسين
وسوف وتاء التأنيث والحرف ما لا يصلح معه
دليل الاسم ولا دليل الفعل باب الأعراب
الإعراب تغير أواخر الكلم لاختلاف العوامل الداخلة
عليها لفظا أو تقديرا وأقسامه أربعة
رفع

نموذج: 1 ـ بداية المخطوط

2 ـ أجود نسخ متن الاجرومية في المكتبة الوطنية

العنوان: الاجرومية (متن)

المؤلف : الاجرومي

رقم المخطوط: 141 المكتبة الوطنية الجزائرية

اللوحة رقم 2

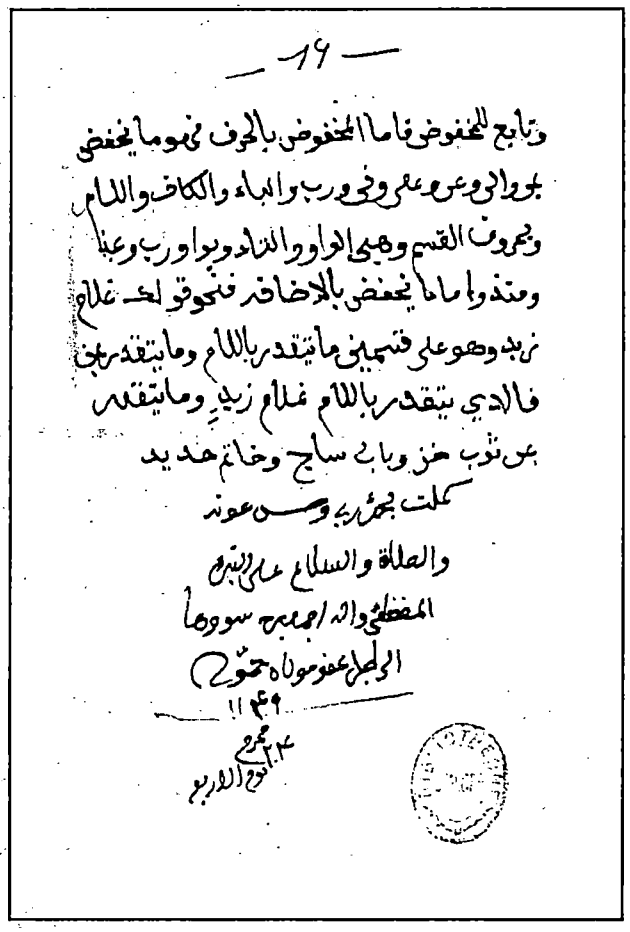

نموذج: 1 ـ آخر المخطوط

2 ـ تاريخ النسخ واسم الناسخ

العنوان: الاجرومية (متن)

المؤلف : الاجرومي

رقم المخطوط: 141 المكتبة الوطنية الجزائرية

1 ـ المخطوط رقم 141

إن أهم ما تميز به المخطوط جودة الخط المكتوب بالنسخي الجميل باللونين الأسود والأحمر وقد حرص الناسخ على ذكر تاريخ النسخ الذي هو الأربعاء 24 محرم 1149 ، عدد الأوراق ثمانية مرقمة بالصفحات من 1 إلى 16 واسم الناسخ: حمو، أثبته في آخر المخطوط في شكل امضاء.

بداية المخطوط: اللوحة رقم: 1

قال الشيخ الفقيه العالم أبو عبد الله محمد بن داود الصنهاجي المعروف بابن آجروم: الكلام هو اللفظ...

آخره: للوحة رقم: 2

كملت بحمد ربي وحسن عونه والصلاة والسلام على نبيه المصطفى وآله أجمعين سودها الراجي عفو مولاه حمو 1149 / 24 محرم الاربعاء.

2 ـ المخطوط رقم 143

عدد أوراق المخطوط ثمانية، خط مغربي واضح يعود تاريخ النسخ إلى القرن الثاني عشر.

في الورقة الأخيرة شطب مقصود لما أضافه الناسخ في آخره، ولعل القصد من ذلك إخفاء معلومات أو تزييفها أو هو من قبيل عبث النساخ الآخرين أو الملاك الذين يضيفون ويحذفون ويغيرون من طبيعة النص.

بداية المخطوط:

قال الشيخ الامام العالم العلامة النحوي أبو عبد الله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي المعروف بابن آجروم رحمه الله ونفعنا به آمين. الكلام لفظ...

آخره:

تمت على يد الفقير]شطب[لولده ولشيخه محمد، ولجميع المسلمين والمسلمات آمين آمين أمين يا رب العالمين.

3ـ المخطوط رقم 139

هو أحسن المخطوطات وأكبرها في عدد الأوراق، خط مغربي جميل بالأسود والأحمر. يعود تاريخ النسخ إلى القرن الثاني عشر عليه آثار الرطوبة والتآكل.

أوله: اللوحة رقم: 3

قال الشيخ الامام العلامة أبو عبد الله محمد بن داود الصنهاجي عرف بآجروم. الكلام لفظ...

اللوحة رقم 3

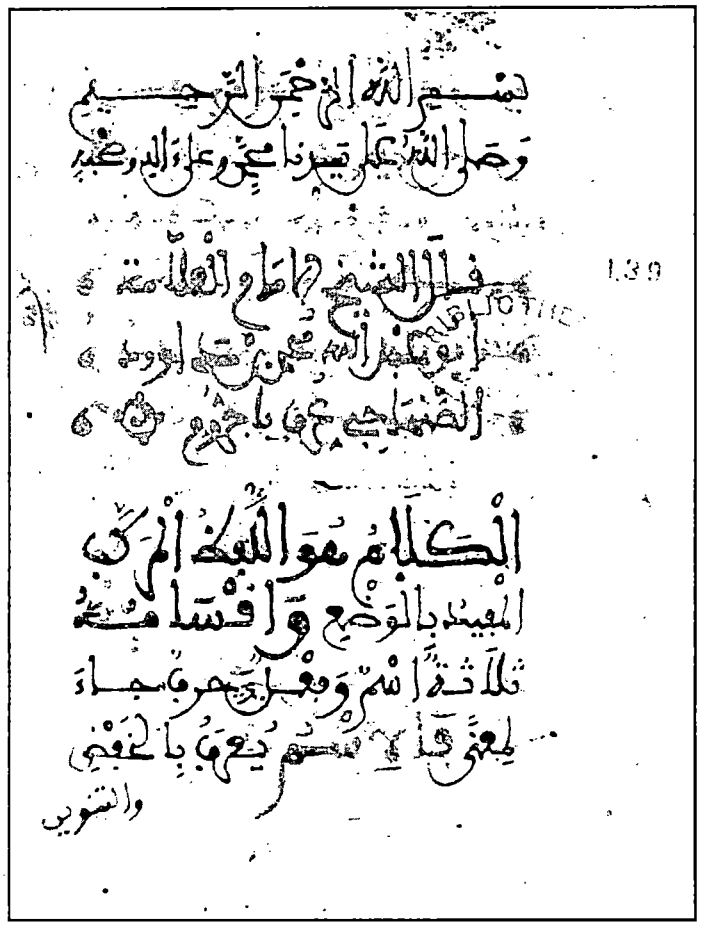

نموذج: 1 ـ بداية المخطوط

2 ـ نسخة جيدة بالاسود والاحمر

العنوان: الاجرومية (متن)

المؤلف : الاجرومي

رقم المخطوط: 139 المكتبة الوطنية الجزائرية

اللوحة رقم 4

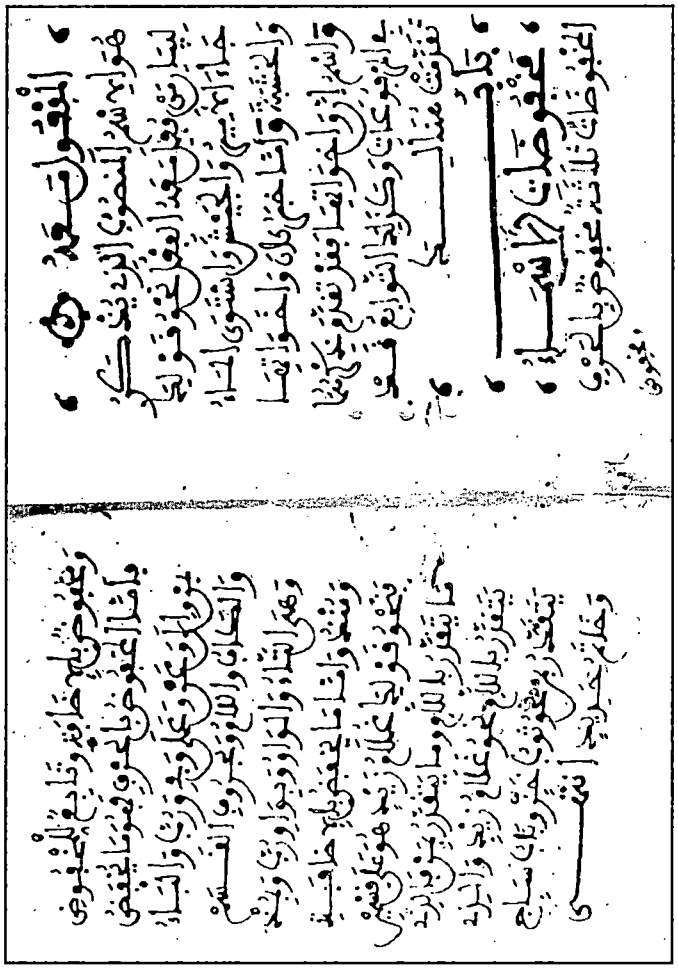

نموذج: 1 ـ نهاية المخطوط

2 ـ نسخة جيدة بالاسود والاحمر

العنوان: الاجرومية (متن)

المؤلف : الاجرومي

رقم المخطوط: 139 المكتبة الوطنية الجزائرية

آخـره: اللوحة رقم: 4

ما يتقدر بلام وما يتقدر بمن فالذي يتقدر باللام نحو غلام زيد والذي يتقدر بمن نحو ثوب خز وباب ساج وخاتم حديد انتهى.

4 ـ المخطوط رقم 140

الأول ضمن مجموع هو أصغر النسخ في عدد الأوراق يقع في خمسة أوراق، خط واضح مقروء بالأسود والأحمر يعود نسخه إلى القرن الثاني عشر.

أولـه:

قال الشيخ الامام النحوي أبو عبد الله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي عرف بآجروم رحمه الله ونفعنا به آمين آمين. الكلام لفظ...

آخـره:

انتهى بحمد الله وحسن عونه وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله.

5 ـ المخطوط رقم 142

الأول ضمن مجموع، أوراقه ثمانية، خطه مغربي واضح بالأسود والأخضر. يهمنا في هذا المخطوط وجود الاسم الكامل للناسخ وتاريخ النسخ.

أولـه:

قال الشيخ الامام العلامة أبي عمر]كذا[محمد بن محمد الصنهاجي عرف بابن جروم]كذا[رحمه الله ورضي عنه ونفعنا به آمين آمين، الكلام لفظ...

آخـره:

كملت الاجرومية المباركة على يد محمد بن زيد بن حمو عام 1206.

6 ـ المخطوط رقم 138

من مظاهر العناية بالمخطوط والعناية بمضمونه ، إضافة الحواشي والشروح والتعاليق وكان ذلك ميدانا كبيرا يتنافس العلماء فيه. وقد بلغ الحرص والعناية بمخطوط متن الاجرومية في هذه النسخة إلى درجة اضافة إعراب المتن دون المساس بالنص الأصلي وذلك بكتابة عبارات إعراب الكلمات بخط دقيق مائل بين السطور فوق كل كلمة من بداية المخطوط إلى نهايته.

يحتوي المخطوط على عشرة أوراق خطه مغربي واضح أسود، دون تاريخ النسخ، على أوراقه آثار الرطوبة والتآكل.

اللوحة رقم 5

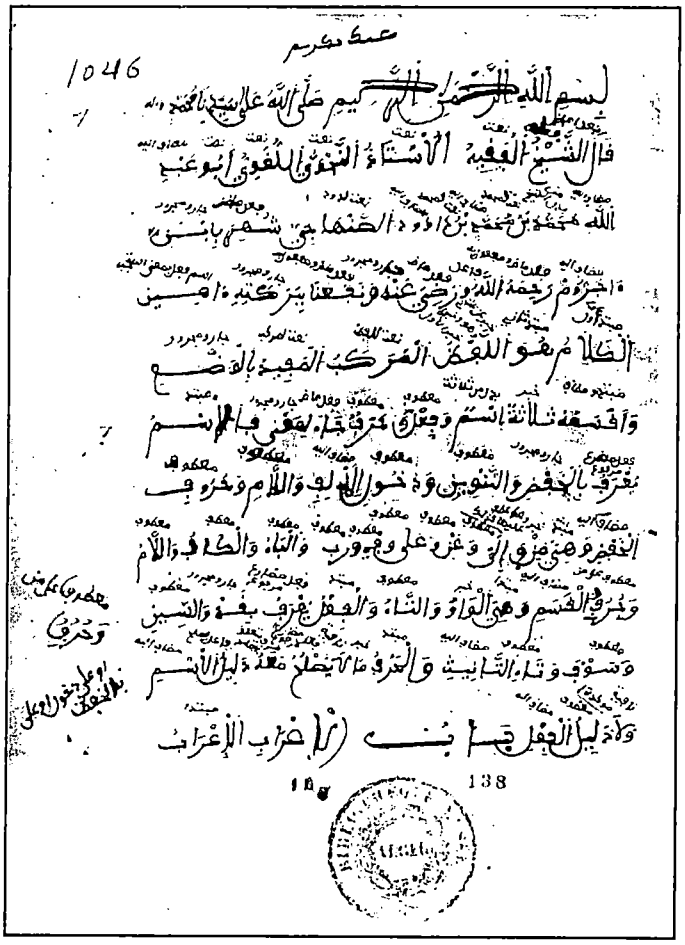

نموذج: 1 ـ بداية المخطوط

2 ـ إضافة إعراب المتن بخط دقيق مائل دون المساس بالنص الاصلي

العنوان: الاجرومية (متن)

المؤلف : الاجرومي

رقم المخطوط: 138 المكتبة الوطنية الجزائرية

اللوحة رقم 6

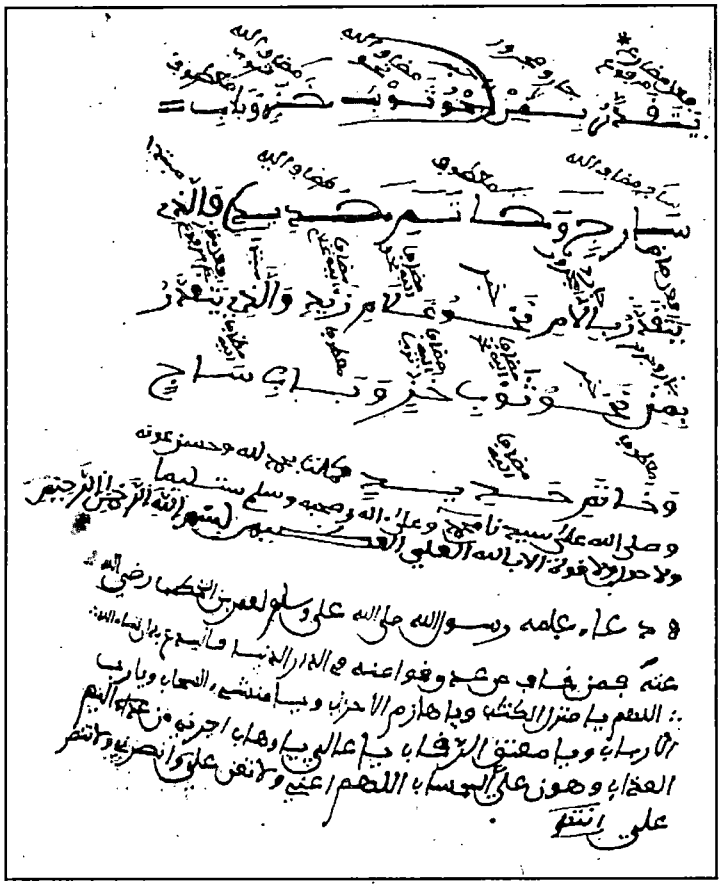

نموذج: 1 ـ نهاية المخطوط

2 ـ إضافة إعراب المتن بخط دقيق مائل دون المساس بالنص الاصلي

العنوان: الاجرومية (متن)

المؤلف : الاجرومي

رقم المخطوط: 138 المكتبة الوطنية الجزائرية

أولــه: اللوحة رقم: 5

قال الشيخ الفقيه الاستاذ النحوي اللغوي أبو عبد الله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي شهر بابن آجروم رحمه الله ورضي عنه ونفعنا ببركته آمين، الكلام هو اللفظ المركب...

آخــره: اللوحة رقم: 6

كملت بحمد الله وحسن عونه وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

7ـ المخطوط رقم 144

من مظاهر العناية بالمخطوط تزيينه باضافة الزخارف والأشكال ويقع ذلك عادة في بداية المخطوط وفي نهايته.

رغم أن المخطوط منقوص من ورقة البداية فإن نهايته تميزت بالزخرفة والألوان والأشكال. لعل الزخارف التي كانت قد زينت كذلك بداية المخطوط كانت السبب في تمزيق الورقة الأولى الناقصة وضياعها.

يحتوي المخطوط وهو الأول ضمن مجموع على ست أوراق خطه مغربي واضح بألوان ثلاثة: الأسود والأخضر والأحمر، على أوراقه آثار الرطوبة.

أولـه:

مواضع في الأسماء الخمسة وللتثنية والجمع وأما الفتحة...

آخـره:

انتهت بحمد الله وحسن عونه وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله والحمد لله رب العالمين.

القسم الثاني

الشروح على الاجرومية

قد تبين في القسم الأول اهتمام النساخ بمتن الاجرومية والتفنن في نسخ مخطوطاتها المتعددة من أجل تسهيل تداولها لشدة الطلب عليها، وقد اسهم ذلك في تعدد أشكال المخطوطات التي دونت متن الاجرومية.

وما دام الأمر يتعلق بالاجرومية فلابد من اتمامه بجانب آخر مكمل للأول، إنه اهتمام الشراح الذين شغلتهم الاجرومية، وقد جمعت لتبيان ذلك شيئا من المعلومات، مما هو محفوظ في المكتبة الوطنية من مخطوطات لمؤلفين جزائريين وغيرهم، نعرضها باختصار في هذه الحلقة قد تفتح الشهية لنواصل التعريف بمخطوطات أخرى في الموضوع نفسه أو نخصص لها أبحاثا تكون أكثر عمقا وتتناول مساهمات أكثر شمولا، وتسلط الضوء عليها وتنفض غبار الزمن الجاثم عليها.

وبهذا الصدد نتناول بعض المؤلفات المخطوطة في شرح الاجرومية وستكون البداية بكتاب العالم الجزائري الذي عاش في القرن العاشر هو محمد الصباغ القلعي عنوانه:

1 ـ الدرة الصباغية في شرح الاجرومية لمحمد بن محمد الصباغ القلعي

لا تقدم المراجع معلومات وافرة عن حياة الصباغ ولا نعرف بالتحديد تاريخ مولده وكذلك تاريخ وفاته ، على أن الدكتور سعد الله استند إلى قرائن وظفها واحتمل أن يكون قد ولد حوالي سنة 923هـ دليله قول الصباغ نفسه: " انه كان ما يزال رضيعا لم تنبت أسنانه عندما انهزم الاتراك أمام جيش أبي حمو الذي كان يساند الاسبان وذلك سنة 924هـ "، ورجح الدكتور سعد الله أن يكون قد عاش إلى حدود سنة 985 مقارنة بحياة معاصر له هو والد ابن مريم]تاريخ الجزائر الثقافي 144/2 ، 118 وبذلك يكون الصباغ قد عاش أكثر من ستين سنة خلال القرن العاشر الهجري.

اسمه الكامل محمد بن محمد بن أحمد بن علي الصباغ الهواري القلعي. ينتسب إلى قلعة هوارة وهي قرية قريبة من تلمسان.

أخذ العلم في قريته على شيخه أحمد بن يوسف الملياني الراشدي وهو شيخ والده أيضا.

تولى القضاء في قريته قلعة هوارة وهو بالاضافة إلى ذلك من العلماء الجزائريين الذين اهتموا بالتصوف ورجاله.

ويعده الدكتور أبو القاسم سعد الله في أكثر من موضع من كتابه تاريخ الجزائر الثقافي أهم مصدر لدراسة أخبار الصوفية في القرن العاشر، وكذلك أخبار الأولياء والصالحين]تاريخ الجزائر الثقافي2/ 116. والقلعي أيضا فقيه نحوي مؤرخ مهتم بشؤون عصره ورجاله من آثاره الأخرى:

أ- كتابه المشهور في ترجمة سيرة شيخه وشيخ والده "بستان الازهار في مناقب زمزم والابرار ومعدن الانوار سيدي أحمد بن يوسف الملياني الراشدي النسب والدار".

ب - شرح في أسماء الله الحسنى.

ج - شرح في الأذكار.

د- شفاء الغليل والفؤاد في شرح النظم الشهير "بالمراد" وهو شرح على قصيدة ابراهيم التازي: القصيدة المرادية.

ويهمنا كما ذكرنا كتابه الدرة الصباغية في شرح الاجرومية وتوجد نسختان من المخطوط : الأولى رقمها 165 والثانية رقمها 2325 يشير الحرف (أ) هنا إلى الأولى والحرف (ب) إلى الثانية.

المخطوط (أ) رقمه 165:

الأول ضمن مجموع في 60 ورقة، خطه مغربي مقروء.

اللوحة رقم 7

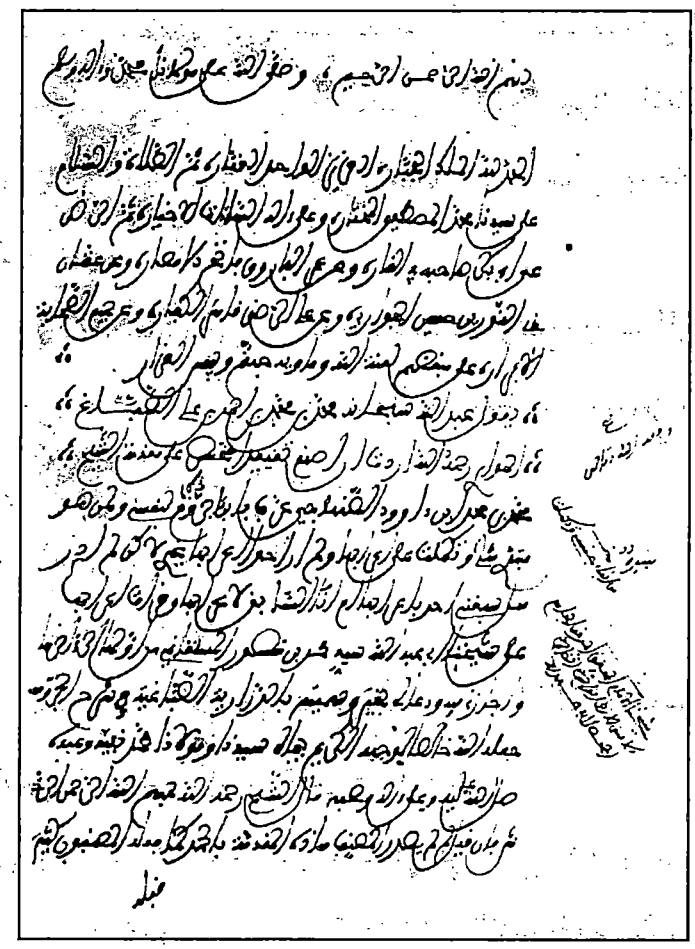

نموذج: 1 ـ بداية المخطوط

2 ـ مقدمة المؤلف يشرح فيها الهدف من التأليف وإجازة شيخه

العنوان: الدرة الصباغية في شرح الاجرومية

المؤلف : محمد بن محمد الصباغ القلعي

رقم المخطوط: 165 المكتبة الوطنية الجزائرية

اللوحة رقم 8

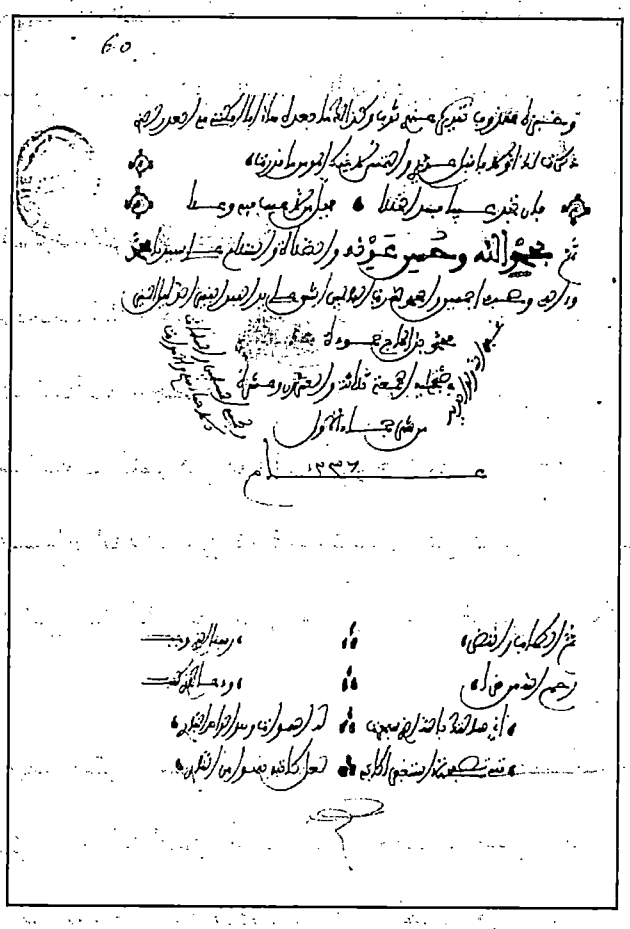

نموذج: 1 ـ نهاية المخطوط

2 ـ تاريخ النسخ والناسخ

العنوان: الدرة الصباغية في شرح الاجرومية

المؤلف: محمد بن محمد الصباغ القلعي

رقم المخطوط: 165 المكتبة الوطنية الجزائرية

أولـه: <اللوحة رقم: 7

الحمد لله الملك الجبار العزيز... يقول عبد الله سبحانه محمد بن محمد بن أحمد بن علي الصباغ الهواري رحمه الله، أردت...

آخـره:اللوحة رقم: 8

تم بحمد الله وحسن عونه... انتهى على يد محمد بن الحاج حمو أو حمودة]شطب[الجمعة 23 من شهر جمادى الأولى 1236.

ومما يلفت النظر في هذا الشرح وجود مقدمة في الورقة الأولى شرح فيها الصباغ الهدف من تأليفه، وتحدث عن السبق في اعرابها واجازة شيخه أبي عبد الله محمد بن منصور المستغانمي ولاهميتها نورد منها ما يلي :

"وبعد فيقول عبد الله سبحانه محمد بن محمد بن علي الصباغ الهواري وفقه الله آمين: أردت أن أضع تقييدا على مقدمة الشيخ الامام أبي عبد الله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي عرف بابن أبي أجروم لنفسي ولمن هو مبتدئ مثلي من أبناء جنسي وتكلمت على إعرابها ولم أر أحـدا أعربها قبلي.

اللوحة رقم 9

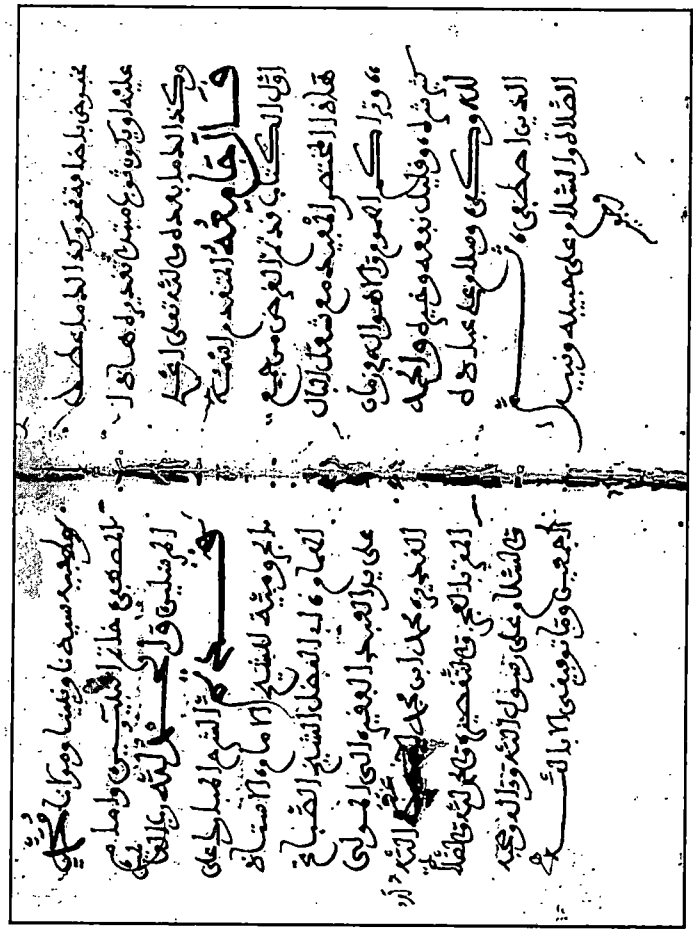

نموذج : 1 ـ نهاية المخطوط

2 ـ المؤلف يشكو عصره

العنوان: الدرة الصباغية في شرح الاجرومية

المؤلف : محمد بن محمد الصباغ القلعي

رقم المخطوط: 2325 المكتبة الوطنية الجزائرية

لكن لم أدر هل سبقني أحد باعرابها أم أنا السابق لاعرابها. وقرأت إعرابها على شيخنا الامام المحقق المدقق الجامع الارضى الضابط المحصل أبي عبد الله سيدي محمد بن منصور المستغانمي من أوله إلى آخره وأجازني فيه ودعا لي بخير وسميته بالدرة الصباغية في شرح الاجرومية. "

المخطوط (ب) رقمه 2325:

عدد أوراقه 156, خط مغربي جميل بالأسود والأحمر اصابة الأوراق بالتمزق والارضة وعليه آثار الرطوبة، ولكن النص بقي سالما.

أولـه:

الحمد لله الملك الجبار العزيز...

آخـره:

على يد العبد الفقير إلى المولى القدير محمد بن محمد]شطب[غفر الله له... وما توفيقي إلا بالله.

وبعد نص المقدمة في بداية المخطوط جاء نص آخر في آخر المخطوط يشكو المؤلف من عصره وما يعانيه في زمانه (النص غير موجود في النسخة السابقة رقم 165 يقول:

" قال جامعه المتقدم اسمه أول الكتاب قد تم الغرض من جمع هذا المختصر المفيد مع شغل البال وتراكم الهموم والاهوال في زمان كثر شره وقليل نفعه وخيره والحمد لله وكفى".]اللوحة رقم: 9

2 ـ الفتوح القيومية في شرح الاجرومية لأحمد بن محمد بن أحمد بن قد:

اهتم المؤلف في مقدمته بسرد مصادره التي اعتمدها ونقل عنها، يشير بالحرف ك إلى ابن مالك، وبالحرف هـ إلى ابن هشام، وبالحرف س للسيوطي، وبالحرف خ إلى الشيخ خالد **اللوحة رقم: 10**

وفي الصفحة التالية لها يناقش قضية المدرسة النحوية التي ينتمي إليها الاجرومي، وقيل أنه ينتمي إلى مدرسة الكوفة، وهو رأي السيوطي، وأكده الدكتورعبد الغني أبو العزم ولم يناقشه في أحدث ترجمة لابن آجروم]موسوعة أعلام العلماء العرب والمسلمين ج1, ص33. دار الجيل 2004 وفي هذا المخطوط مناقشة مدعمة بأمثلة عديدة من آراء ابن آجروم وآراء كل طرف وبعد ذلك قال: "لا ينهض هذا كله دليلا على أنه كوفي المذهب في النحو، لما وجدنا كثيرا في هذه المقدمة على مذهب البصريين". ثم أعقب ذلك بأدلة كثير من تبني الآجرومي لآراء البصريين **اللوحة رقم: 11**

اللوحة رقم 10

نموذج: 1 ـ بداية المخطوط (الورقة 1)

2 ـ مقدمة وصف المؤلف فيها مصادره وشرح فوائد النحو وأشاذ بالاجرومية

العنوان: الفتوحات القيومية في شرح الاجرومية

المؤلف : أحمد بن محمد بن أحمد بن قد

رقم المخطوط: 163 المكتبة الوطنية الجزائرية

اللوحة رقم 11

نموذج: 1 ـ بداية المخطوط (الورقة 2)

2 ـ ناقش المؤلف قضية المدرسة النحوية التي ينتمي إليها الاجرومي، خلاصتها رفض الآراء التي تنسبه إلى مدرسة الكوفة ودعم موقفه بأدلة كثيرة من الاجرومية.

العنوان: الفتوحات القيومية في شرح الاجرومية

المؤلف : أحمد بن محمد بن أحمد بن قد

رقم المخطوط: 163 المكتبة الوطنية الجزائرية

رقم المخطوط 163:

خط مغربي مقروء، عدد الأوراق 31 لم يكتمل.

في الورقة الأولى:

هذه حواشي وضعتها على الاجرومية المباركة للشيخ أبي عبد الله العالم العلامة المبارك الاستاذ الصالح محمد بن محمد بن آجروم. ولم أخلها من فوائد مهمة وتتمات يتشوق إليها عالي الهمة وسميتها: الفتوح القومية في شرح الاجرومية..

...فالمؤلف رحمه الله تعالى هو محمد بن محمد بن داود الصنهاجي أبو عبد الله عرف بابن آجروم بفتح الهمزة الممدودة وضم الجيم والراء المشددة ومعناه بلغة البربر: الفقير الصوفي حاله.

3 ـ فتح معط الامنية بشرح الاجرومية لأبي بكر بن اسماعيل الشنواني (959ـ1019هـ الموافق 1552ـ1611م):

يقع المخطوط في 224 ورقة ومن الطريف ورغم ضخامة الكتاب وهو أكبر الشروح من حيث عدد الأوراق، قول المؤلف في بداية المخطوط أنه اختصار لشرح قام به فيما مضى " وبعد فيقول أبو بكر اسماعيل الشنواني... إنني شرحت فيما مضى المقدمة المسماة بالاجرومية في علم العربية.

اللوحة رقم 12

نموذج: 1 ـ بداية المخطوط

2 ـ من المقدمة: شرحت فيما مضى المقدمة المسماة بالاجرومية في علم العربية شرحا يحصل به المقصود ... ثم رأيت اختصاره ... وسميته فتح معط الامنية بشرح الاجرومية

العنوان : فتح معط الامنية بشرح الاجرومية

المؤلف : أبو بكر بن اسماعيل الشنواني

رقم المخطوط: 167 المكتبة الوطنية الجزائرية

شرحا يحصل به المقصود ببركة الرب المعبود ثم رأيت اختصاره لمن قصرت همته عن كتابة المطولات ومطالعة الكثير من المتوسطات... وسميته فتح معط الامنية بشرح الاجرومية.

رقم المخطوط : 167

الخط مشرقي جميل بالأسود والأحمر.

أولـه: اللوحة رقم: 12

الحمد لله فاعل لما يختار وكل شيء مفعول بقدرته وارادته...

آخـره:

ووافق الفراغ من كتابة هذه النسخة يوم الثلاثاء المبارك الخامس عشر من شهر ربيع الأول من شهور سنة أربعة وستين وألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام على يد كاتبها العبد الفقير إلى مولاه الغني علي الواطي بلدا المالكي مذهبا.

4 ـ الفتوحات القدوسية في شرح المقدمة الاجرومية لأبي العباس أحمد بن عجيبة (1160-1224هـ الموافق 1747 ـ1809م)

رقم المخطوط 169 يقع في 70 ورقة

أولـه:

قال الشيخ العالم الأكبر الجليل الاشهر العارف بالله المحقق المدقق المشارك في العلوم الظاهرة والباطنة... أحمد بن عجيبة...

آخـره:

ووافق الفراغ من تبييضه يوم الخميس بإزاء جبل النجوى وكتبه الفقير إلى مولاه الغني البر عبده وابن عبده أحمد بن عمر... ووافق الفراغ من نسخه يوم الثلاثاء الموفى عشرين من جمادى الأولى ..1261. رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين.

بالاضافة إلى أهمية المخطوط في مجمله فإنه يتميز بالمقدمة الطويلة التي استهل بها ابن عجيبة كتابه مبينا أهمية النحو وفائدته في البداية ثم أشاد بصاحب المتن وبين مقاصده من الشرح وخاصة ربط الشرح بالاتجاه الصوفي [11]... وبعد فأهم ما يعتني به الانسان بعد اصلاح دينه بتحقيق الايمان والاسلام اصلاح لسانه من اللحن في الكلام، وذلك بالتغلغل في علم العربية واللغة إذ بذلك يتقوى على فهم كتابه العزيز الحكيم وسنة نبيه عليه افضل الصلاة وأزكى التسليم، اللذان بهما دام الدين واستمر بقاؤه على المسلمين. فلولا هذا العلم الشريف لدخل في السنة المحمدية التغيير والتحريف ولوقع الخلل في فهم كتاب الله

اللوحة رقم 13

نموذج: 1 ـ بداية المخطوط

2 ـ مقدمة في فائدة النحو

العنوان : الفتوحات القدوسية في شرح المقدمة الاجرومية

المؤلف : أبو العباس أحمد بن عجيبة

رقم المخطوط: 169 المكتبة الوطنية الجزائرية

اللوحة رقم 14

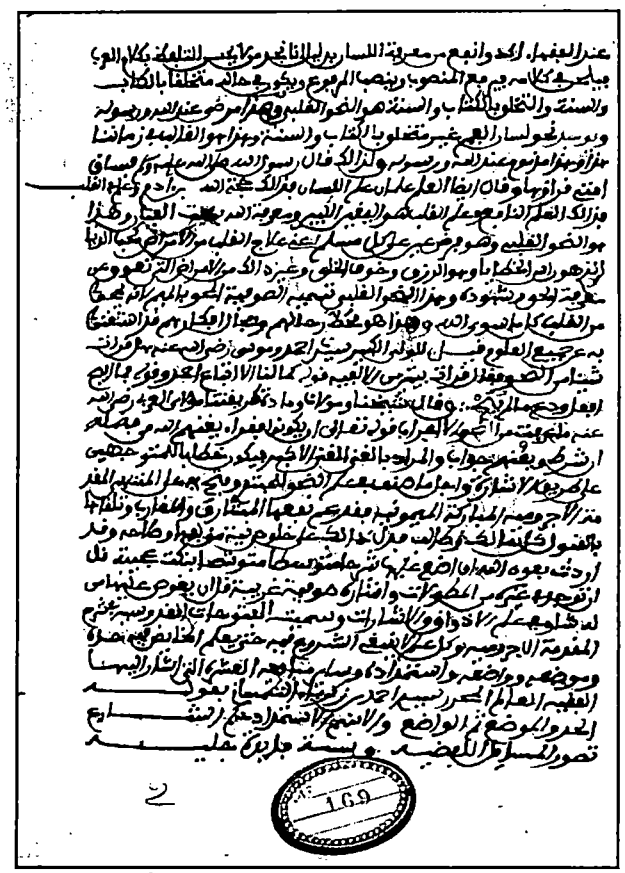

نموذج: 1 ـ بداية المخطوط

2 ـ مقدمة في الاشادة بالاجرومية ومقاصد ابن عجيبة في التأليف وتوظيف الاتجاه الصوفي عنده في الشرح

العنوان : الفتوحات القدوسية في شرح المقدمة الاجرومية

المؤلف : أبو العباس أحمد بن عجيبة

رقم المخطوط: 169 المكتبة الوطنية الجزائرية

الحكيم الحبيب فتعين حفظ هذا العلم وتحصيله على كل عاقل لبيب ثم يجب عليه بعد اصلاح لسانه بتصفيته من الرذائل وتحليته بأنواع الفضائل ليتأهل بذلك قلبه لاشرف أنوار حقائق التوحيد وأسرار التفريد، فاصلاح اللسان دون اصلاح الجنان فسوق وضلال واصلاح الجنان دون اصلاح اللسان كمال دون كمال واصلاحهما معا الكمال...**اللوحة رقم:13**. يضاف إلى ذلك إشادة ابن عجيبة بالاجرومية وذكر معلومات تخص كتابه: "... وأجل ما صنف في علم النحو للمبتدئ وفتح به على المنتهى، المقدمة الاجرومية المباركة الميمونة فقد عم نفعها المشارق والمغارب وتلقاها بالقبول كل سالك طالب فدل ذلك على خلوص نية مؤلفها وصلاحه، وقد أردت بعون الله أن أضع عليها شرحا متوسطا متوشحا بنكت عجيبة قل أن توجد في غيره من المطولات واشارة صوفية غريبة قل أن يغوص عليها من له شأو في علم الأذواق والاشارات وسميته: الفتوحات القدوسية في شرح المقدمة الاجرومية. **اللوحة رقم: 14**

5 ـ الدرة النحوية في شرح الجرومية لمحمد بن أحمد الحسني الشريف الغرناطي (ت 860 هـ / 1358 م)

هناك ظاهرة وفرة وتعدد نسخ هذا المخطوط في المكتبة أرقامها بالترتيب:68-145-146-147-148-150-151-152-153-154. إلا أن أغلب النسخ مصابة بالتلف والتآكل والتمزق .

اللوحة رقم 15

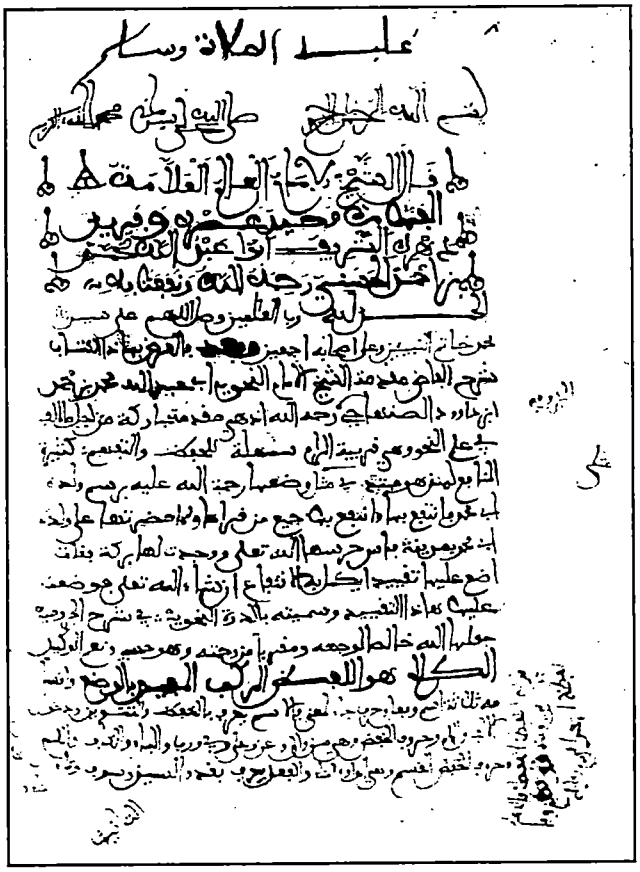

نموذج: 1 ـ بداية المخطوط

2 ـ اعتمد الشارح على نسخة بخط شيخه أبي محمد وهو ولد الاجرومي.

العنوان : الدرة النحوية في شرح الاجرومية

المؤلف : محمد بن احمد الحسني الشريف الغرناطي

رقم المخطوط: 68 المكتبة الوطنية الجزائرية

اللوحة رقم 16

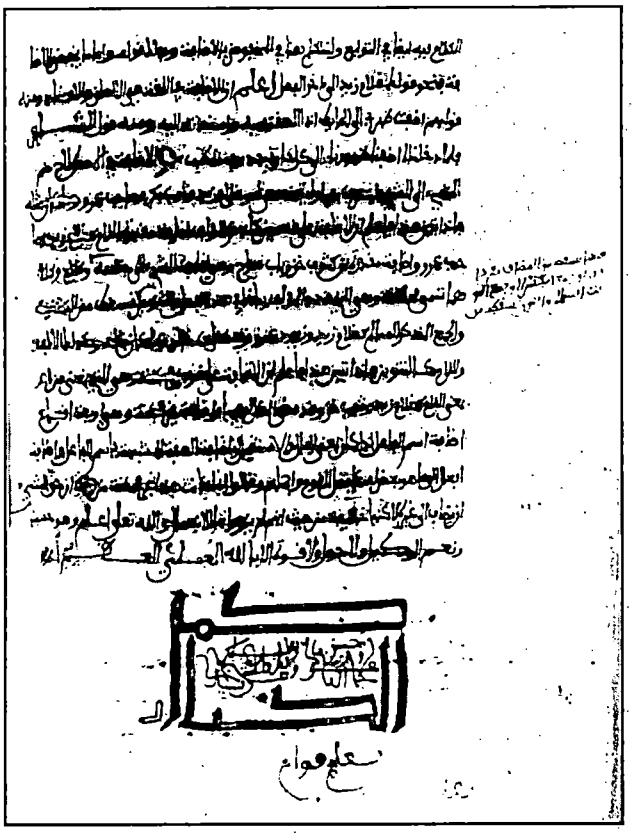

نموذج: 1 ـ نهاية المخطوط عليه آثار رطوبة

2 ـ اعتمد الشرح على نسخة بخط شيخه أبي محمد وهو ولد الاجرومي

العنوان : الدرة النحوية في شرح الاجرومية

المؤلف: محمد بن احمد الحسني الشريف الغرناطي

رقم المخطوط: 68 المكتبة الوطنية الجزائرية

والنقص في أجزاء كبيرة منها سلمت من التلف ثلاث نسخ، الاولى رقمها 68 والثانية رقمها 145 ورقم الثالثة 154.

المخطوط رقم: 68.

أولـه: اللوحة رقم: 15

قال الشيخ الامام... الشريف أبو عبد الله محمد بن أحمد الحسني...

آخـره: اللوحة رقم: 16

الله تعالى أعلم وهو حسبي ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا باله العلي العظيم.

هذه فقرة في بداية المخطوط يشرح فيها المؤلف أهمية الاجرومية ويذكر معلومات عن شرحه ذات أهمية كبيرة:

" الغرض بهذا الكتاب شرح ألفاظ مقدمة الشيخ الامام النحوي أبي عبد الله محمد بن محمد بن ابن داود الصنهاجي رحمه الله إذ هي مقدمة من أجل ما ألف في علم النحو وهي قريبة المرام سهلة للحفظ والتفهم كثيرة المنافع لمن هو مبتدئ مثلي وضعها رحمة الله عليه برسم ولده فانتفع بها وانتفع بها جميع من قرأها ولما حضرتها على ولده أبي محمد بمدينة فاس... فقلت أضع عليها تقييدا يكمل به الانتفاع إن شاء الله تعالى فوضعت عليها هذا التقييد وسميته بالدرة النحوية في شرح الاجرومية.

6 ـ شرح الاجرومية للأزهري خالد بن عبد الله بن محمد (838 ـ 905 هـ الموافق 1435 ـ 1499م)

في المكتبة الوطنية خمس نسخ مختلفة من هذا المخطوط أرقامها متتابعة من الرقم 156 إلى الرقم 159, واحدة منها فقط كاملة وهي أجود النسخ رقمها 155 .

أولـها :

قال الشيخ الامام العالم العلامة سيبويه زمانه ووحيد عصره وأوانه لسان العرب وحجة الأدب زين الدين خالد...

آخـرها : اللوحة رقم: 17

وكان الفراغ من تصنيف هذا الشرح عند الضحى من أول شهر جمادى الأولى يوم السبت عام 1088.

وصف المؤلف كتابه في المقدمة قال: " وبعد فهذا شرح لطيف لألفاظ الاجرومية في أصول علم العربية ينتفع به المبتدئ إن شاء الله تعالى ولا يحتاج إليه المنتهي عملته للصغار في الفن والأطفال لا للممارسين في العلم من فحول الرجال حملني عليه شيخ الوقت والطريقة... سيدي الشيخ عباس الازهري" :

اللوحة رقم: 18

اللوحة رقم 17

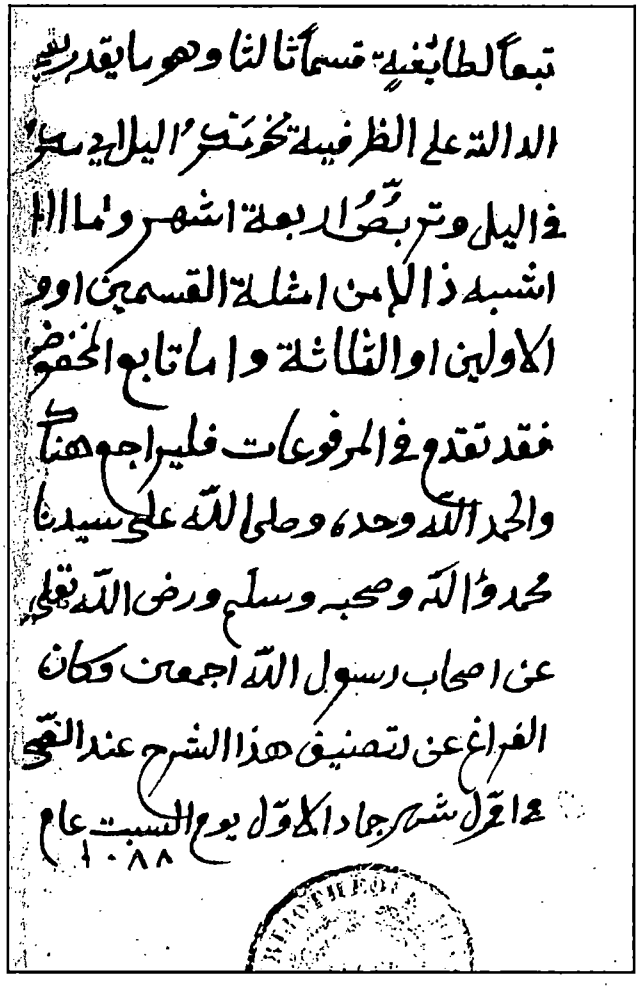

نموذج: 1 ـ نهاية المخطوط مع تاريخ النسخ

العنوان : شرح الاجرومية

المؤلف : الازهري خالد بن عبد الله بن محمد

رقم المخطوط: 155 المكتبة الوطنية الجزائرية

اللوحة رقم 18

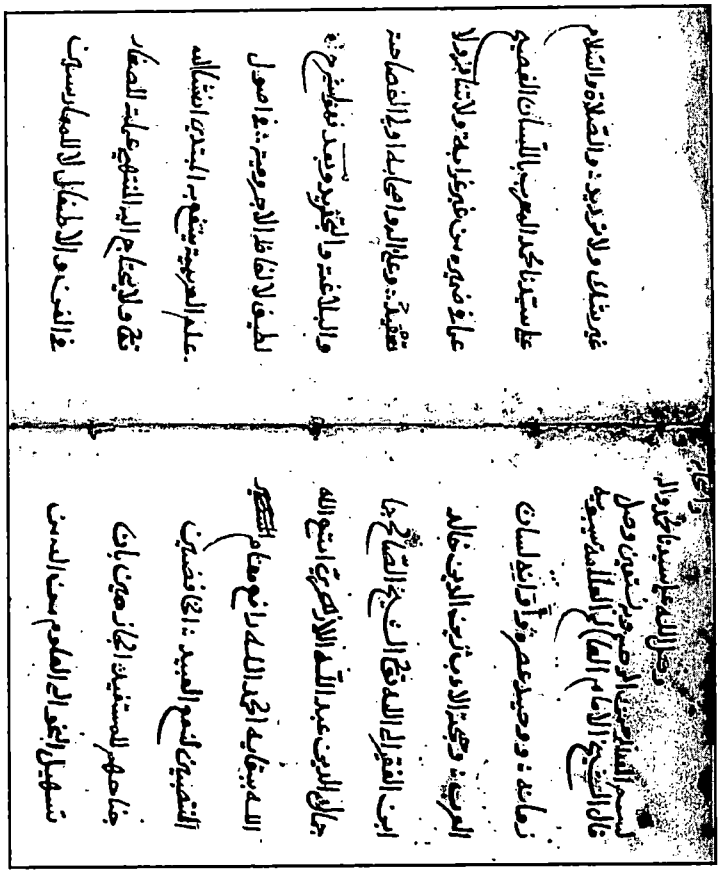

نموذج: 1 ـ بداية المخطوط

2 ـ نموذج أجود النسخ من بين خمس نسخ في المكتبة الوطنية

3 ـ قال : عملته للصغار في الفن والاطفال

العنوان: شرح الآجرومية

المؤلف : الازهري خالد بن عبد الله بن محمد

رقم المخطوط: 155 المكتبة الوطنية الجزائرية

7 ـ شرح ألفاظ الاجرومية للبجائي محمد بن محمد

توجد في المكتبة نسختان رقم الأولى 2923 وهي ناقصة من آخرها ورقم الثانية 3029 وهي ناقصة من أولها ومن آخرها.

ـ المخطوط رقم 2923:

أولـه:

قال الشيخ القدوة البركة النحوي البجائي رحمه الله وبرد ضريحه الحمد لله...

آخـره:

أردت أن تقول للفرس فغلطت فأبدلت زيدا منه.

في المقدمة شرح لدواعي التأليف واضافة ما أغفله الشراح الآخرون الذين سبقوه قال: **اللوحة رقم: 19**

" وبعد فالغرض من هذا الكتاب شرح ألفاظ مقدمة الشيخ الامام النحوي أبي عبد الله محمد بن محمد الصنهاجي بن داوود الصنهاجي الاجرومي رضي الله عنه يبينها بيانا شافيا يطلق عقالها ويسهل للناظر نوالها لما رأيت من إصغاء الناس إليها واعتمادهم في أول خوضهم في هذا الفن لما شاهدوه عيانا وتبين لهم تبيانا من كثرة المنتفعين بها إذ اشتملت على أصول النحوي وقواعده التي بهـا يتيسر بيانه عليها مع بركة مؤلفها فرأيت من اكمل الانتفاع بها والتعليم التكلم على ما أغفله

من عنا بشرحها مما عسى أن يشكل على المبتدي دون تعرض إلى نقل إلا ما لابد منه ويشعر الناظر فيها إليه وما سوى ذلك فهو محال على الدواوين الكبار جعله الله خالصا لوجهه الكريم ومقربا من رحمته وهو المستعان وعيله التكلان [11].

اللوحة رقم 19

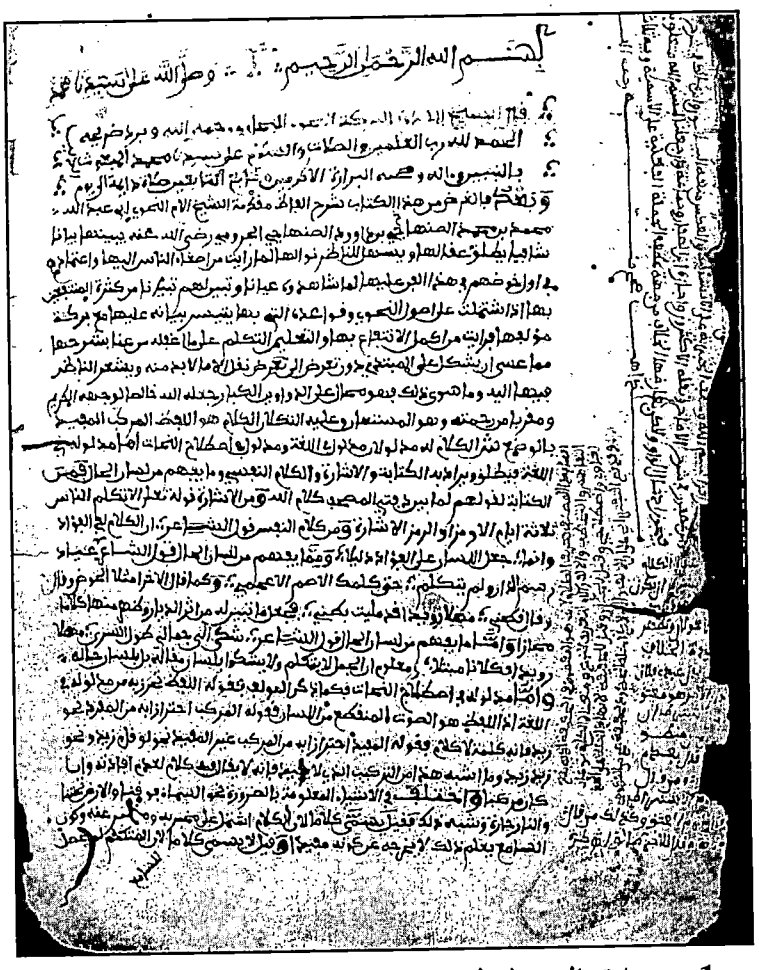

نموذج: 1 - بداية المخطوط

2 - إقبال الناس على الاجرومية - إضافة ما أغفله الآخرون

العنوان : شرح ألفاظ الاجرومية

المؤلف : محمد بن محمد البجائي

رقم المخطوط: 2923 المكتبة الوطنية الجزائرية

ظاهرة الإعراب في النحو العربي

د . التواتي بن التواتي

أستاذ النحو العربي وأصوله بجامعة عمار ثليجي ـ الأغواط ـ

ملخص المقال: يتناول هذا المقال ظاهرة الإعراب في النحو العربي وما دار حولها من جدل بين الدارسين المحدثين مما دلّ على قصور كثير منهم في النظر والتحليل والفهم وأنّ هدفهم كان تقويض هذا البناء الذي قام به جمع من علماء أفذاذ فطاحل ربط بينهم نسب علمي، وفهموا أن النحو العربي ليس هو الدراية بالإعراب وإنما هو (أي: الإعراب) جزء منه، وإنّ مفهوم علم النحو أعمق مما تصوره هؤلاء.

والذي دعاهم إلى هذا الاعتقاد وظيفة النحو التي يراها النحاة القدامى هي تعيين صلة الكلمات بعضها ببعض في الجملة الواحدة بحسب المعنى المراد وكانت حركات الإعراب في العربية تقوم بالجزء الأكبرمن تلك الوظيفة حتى طغى معنى الإعراب على النحو كلّه حتى سمي بعلم الإعراب وليس هذا التعريف صحيحا على يظهر لنا لاحقا لأنّ النحو أوسع من الإعراب وأشمل.

شغلت ظاهرة الإعراب النحاة منذ وُضع النحو وكان قد هداهم استقراؤهم إلى أن نظم الكلمة في الجملة له أثره في أن يكون على حال معينة من الرفع أو النصب أو الجرّ أو الجزم ومن ثَمَّ كان موقع الكلمة أو اقترانها بنوع معين من الأدوات علامة على أنّها قد اكتسبت أثرا إعرابيا خاصا، وكانت لهم في هذا المجال أصولهم وقوانينهم ولم يختلف النحاة في أن المحدث لهذه الآثار إنما هو المتكلم فهو الذي يرفع وينصب ويجر ويجزم، ولكنهم اصطلحوا على تسمية هذه الأدوات عوامل من حيث أنّها أوجبت ذلك، ولا نزاع أيضا أن النحو هو قانون اللغة العربية وميزان تقويمها وإذا كانت اللغة العربية هي رأس مال لكلّ ناظر في أي نصّ فحينئذ يحتاج إلى المعرفة بالنحو وطرق الإعراب. وهنا نسأل ما الإعراب ؟ وما هو مفهوم الإعراب عند النحاة المحدثين؟ وما هي وظيفة الإعراب؟ وما علاقة الإعراب بالمعنى؟ وهل الإعراب هو النحو؟ التفاعل بين الدلالة والمعنى؟ وهذه مجموعة وغيرها من الأسئلة جديرة بالاهتمام نحاول في هذه الصفحات مناقشتها والإجابة عنها بما فتح الله تعالى :

التعريف اللغوي : قال الأزهري : الإعراب والتعريب معناهما واحد وهو الإبانة يقال: أعرب عنه لسانه وعرب أي أبان وأفصح وأعرب عن الرجل بيّن عنه وعرب عنه تكلم بحجته.

وحكى ابن الأثير عن ابن قتيبة إنما سمي الإعراب إعرابا لتبيينه وإيضاحه ومنه الحديث الآخر : "فإنما كان يعرب عما في قلبه لسانه"

ومنه حديث التيمي: "كانوا يستحبون أن يلقنوا الصبي حين يعرب أن يقول: لا إله إلا الله سبع مرات" أي: حين ينطق ويتكلم وفي حديث السقيفة: "أعربهم أحسابا" أي: أبينهم وأوضحهم ويقال : أعرب عما في ضميرك أي أَبِنْ ومن هذا يقال للرجل الذي أفصح بالكلام : أعرب.[1]

قال الخليل: وأعرب الرجل أفصح القول والكلام وهو عرباني اللسان أي: فصيح وأعرب الفرس إذا

خلصت عربيته وفاتته القرافة.[2] ومنه قول رسول الله "الثيب يعرب عنها لسانها".[3]

وسمى النحويون اعتقاب الحركات على أواخر الأسماء المتمكنة والأفعال المضارعة إعرابا لأنه يكون الإعراب أي البيان للمعاني المختلفة وقيل: الإعراب منقول من قولهم عربت معدته أي فسدت فكان المعنى في الإعراب إزالة الفساد ورفع الإبهام لأنك إذا خالفت بين الحركات وجعلت كل واحدة على معنى أتضح المراد وزال اللبس فأعربت على هذا الوجه مثل{أعجمت الكتاب أي أزلت عجمته}وهذه الهمزة تسمى همزة السلب.

وقد وردت لفظ "إعراب" مبكرا في الصدر الأول وأنّها من الألفاظ التي استعملها رسول الله فقد روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله: "أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه".

1 ـ لسان العرب ، ابن منظور ، 588/1

2 ـ العين ، الخليل ، 128/2

3 ـ المغرب ، 50/2

تحقيق الحديث: روي هذا الحديث من طرق كثيرة وهو حديث صحيح الإسناد على مذهب جماعة من الأئمة ولم يخرجه البخاري ومسلم وأخرجه الحاكم في مستدركه عليهما.

وأما المعنى المراد من قولهم : "إعراب القرآن" فله معنيان:

أحدها: أن يحافظ على الحركات التي بها يتميز لسان العرب على لسان العجم لأن أكثر كلام العجم مبني على السكون وصلا وقطعا ولا يتميز الفاعل من المفعول والماضي من المستقبل باختلاف المقاطع.

والثاني: أن يحافظ على أعيان الحركات ولا يبدل شيء منه بغير لأن ذلك ربما أوقع اللحن المعنى.

وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله: «من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرفٍ عشر حسنات ومن قرأه ولحن فيه فله بكلّ حرفٍ حسنة»

تحقيق الحديث : روي من طرق كثيرة منها هذه الرواية التي أخرطها الطبراني في الأوسط.ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح. وقال أبو بكر وعمر: »إعراب القرآن أحب إلينا من حفظ بعض حروفه«.

وإن القصد من إثبات هذين الحديثين لندرك أن لفظ "إعراب" عرف مبكّرا وأن المراد منها ليس كما هو مفهوم في اصطلاح النحويين الآن وإنّما المراد منها الإبانة والتوضيح لا غير.

يقول المناوي: الإعراب في اللغة البيان والفصاحة والإيضاح وعرفا نحويا اختلاف آخر الكلمة باختلاف العوامل لفظا أو تقديرا وبالفتح سكان البادية.[4]

4 ـ التعاريف ، محمد عبد الرؤوف المناوي ، ص: 75

وهذه التعريفات اللغوية تكاد تجمع على أن الإعراب معناه الإبانة والظهور وإن هذه آثار حسان التي أوردناها تدلّ على أن معنى الإعراب هو الإيضاح والإبانة: وقد أخرج ابن الأنباري عن أبي بكر الصديق قال: لأنْ أعرب آية من القرآن أحب إلي من أن أحفظ آية.

وأخرج أيضا عن عبد الله بن بريدة عن رجل من أصحاب النبي قال: لو أني أعلم إذا سافرت أربعين ليلة أعربت آية من كتاب الله لفعلت. وأخرج أيضا من طريق الشعبي قال : قال عمر : من قرأ القرآن فأعربه كان له عند الله أجر شهيد.

قال السيوطي: معنى هذه الآثار عندي إرادة البيان والتفسير لأن إطلاق الإعراب على الحكم النحوي اصطلاح حادث ولأنه كان في سليقتهم لا يحتاجون إلى تعلمه ثم رأيت ابن النقيب جنح إلى ما ذكرته وقال : ويجوز أن يكون المراد الإعراب الصناعي وفيه بعد. وقد يستدل له بما أخرجه السلفي من حديث ابن عمر مرفوعا "أعربوا القرآن يدلكم على تأويله".[5]

التعريف الاصطلاحي: الإعراب عند النحاة هو اختلاف آخر الكلمة لاختلاف العامل فيها لفظا أو تقديرا ويدخل في هذا إعراب الاسم الصحيح والمعتل فالمقصور يقدر على ألفه الإعراب كاللفظ وليس كذلك آخر المبني فإن آخره إذا كان ألفا لا تقدر عليه حركة إلا أن يكون مما يستحق البناء على الحركة.

5 ـ الإتقان في علوم القرآن ، السيوطي ، 465/2

وقيل: الإعراب هو اختلاف أواخر الكلم باختلاف العوامل والفرق بين الإعراب والبناء أن الإعراب هو الاختلاف والبناء هو اللزوم والذي يدل على صحة هذا إضافة هذه الحركات إلى الإعراب والبناء فيقال حركات الإعراب وحركات البناء.[6]

وقال ابن هشام: الإعراب أثر ظاهر أو مقدر يجلبه العامل في آخر الكلمة وأنواعه أربعة رفع ونصب في اسم وفعل نحو: {يد يقوم ، وإن زيدا لن يقوم} وجر في اسم نحو : لزيد ، وجزم في فعل نحو: لم يقم ،ولهذه الأنواع الأربعة علامات أصول وهي الضمة للرفع والفتحة للنصب والكسرة للجر وحذف الحركة للجزم وعلامات فروع عن هذه العلامات.[7]

واختلف علماؤنا القدامى ومنهم (ابن الأنباري وأبو البقاء العكبري) في مفهوم الإعراب لغة واصطلاحا ارتأى البحث إثبات هذا الخلاف تعميما للفائدة وبيانا للمفهوم

أما مفهوم الإعراب عند ابن الأنباري لغة واصطلاحا: ففيه ثلاثة أوجه :

الوجه الأول: أن يكون سمي بذلك لأنه يبين المعاني مأخوذ من قولهم : أعرب الرجل عن حجته إذا بينها ومنه قوله: "الثيب يعرب عنها لسانها" أي: يبين ويوضح قال الشاعر من الطويل :

---

6 ـ أسرار العربية ، ابن الأنباري ، ص: 43

7 ـ أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، 1/39

وجدنا لكم في آل حـــم آيـــة تأولـهـــا مـنـا تقي ومـعـــرب

فلما كان الإعراب يُعَيِّن المعاني سمي إعراب.

الوجه الثاني: أن يكون سمي إعراب لأنه تغير يلحق آخر الكلم من قولهم: عربت معدة الفصيل إذا تغيرت فإن قيل: العرب في قولهم: عربت معدة الفصيل معناه الفساد فكيف يكون الإعراب مأخوذا منه قيل: معنى قولك: أعربت الكلام أي: أزلت عربه وهو فساده وصار هذا كقولك "أعجمت الكتاب" إذا أزلت عجمته و"أشكيت الرجل" إذا أزلت شكايته وعلى هذا حمل بعض المفسرين قوله تعالى: **(إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا)** طه/أي أزيل خفاؤها وهذه الهمزة تسمى همزة السلب.

الوجه الثالث: أن يكون سمي إعراب لأن المعرب للكلام كأنه يتحبب إلى السامع بإعرابه من قولهم: "امرأة عروب" إذا كانت متحببة إلى زوجها قال الله تعالى: **﴿عُرُبًا أَتْرَابًا(37)﴾** الواقعة/أي متحببات إلى أزواجهن فلما كان المعرب للكلام كأنه يتحبب إلى السامع بإعرابه سمي إعراب.[8]

أما معناه الإعراب من جهة الاصطلاح عند أبي البقاء فقد ورد فيه أربعة أوجه:

أحدها: أن الإعراب هو الاختلاف على ما سبق في حده والاختلاف معنى لا لفظ.

8 ـ أسرار العربية، ابن الأنباري، ص: 40ـ 41

الثاني : أنه فاصل بين المعاني والفصل والتمييز معنى لا لفظ.

الثالث : أن الحركات تضاف إلى الإعراب فيقال حركات الإعراب وضمه. إعراب والشيء لا يضاف إلى نفسه.

الرابع: أن الحركة والحرف يكونان في المبني وقد تزول حركة المعرب بالوقف مع الحكم بإعرابه وقد يكون السكون إعرابا وهذا كله دليل على أن الإعراب معنى.[9] وأجود ما قيل في إقامة الإعراب، وترك التغيير ما أنشدناه أبو أحمد عن الصولي :

ويعجبني زيُّ الفتى وجمالُه ... ويسقط من عيني ساعةَ يلحنُ

على أن للإعراب حداً ورُبما ... سمعت من الأعراب ما ليس يحسنُ

ولا خيرَ في اللفظ الكريه استماعه ... ولا في قبيح اللحن والقصدُ أزينُ

وتحدث ابن جني عن مفهوم الإعراب فقال: أما لفظه فإنه مصدر أعربت عن الشيء إذا أوضحت عنه وفلان معرب عما في نفسه أي مبين له وموضح عنه ومنه: عربت الفرس تعريبا إذا بزغته وذلك أن تنشف أسفل حافره ومعناه أنه قد بان بذلك ما كان خفيا من أمره لظهوره إلى مرآة العين بعد ما كان مستورا وبذلك تعرف حاله أصلب هو أم رخو وأصحيح هو أم سقيم ؟ وغير ذلك.

وأصل هذا كله قولهم: العرب وذلك لما يعزى إليها من الفصاحة والإعراب والبيان ومنه قوله في الحديث "الثيب تعرب عن نفسها" والمعرب صاحب الخيل العراب وعليه قول الشاعر:

9ـ اللباب في علل البناء والإعراب ، أبو البقاء ، 53/1

وَيَصْهِلَ فِي مِثْلِ جَوْفِ الطَّوِيِّ صَهِيلًا يُبَيِّنُ لِلْمُعْرِبِ

أي : إذا سمع صاحب الخيل العراب صوته علم أنه عربي ومنه عندي عروبة والعروبة للجمعة وذلك أن يوم الجمعة أظهر أمرا من بقية أيام الأسبوع لما فيه من التأهب لها والتوجه إليها وقوة الإشعار بها قال :

بَاتَ عَذُوبًا لِلسَّمَاءِ كَأَنَّمَا (يُوَائِمُ رَهْطًا لِلْعُرُوبَةِ صُيِّما

ولما كانت معاني المسمين مختلفة كان الإعراب الدال عليها مختلفا أيضا وكأنه من قولهم : عربت معدته أي فسدت كأنها استحالت من حال إلى حال كاستحالة الإعراب من صورة إلى صورة.[10]

الاختلاف في أصل الإعراب هل هو الأسماء أم الأفعال؟

اختلف النحاة في إعراب الأسماء والأفعال على مذهبين:

(أ) ـ ذهب البصريون أن الإعراب أصل في الأسماء فرع في الأفعال فالأصل في الفعل البناء عندهم.

وحجتهم في ذلك أن الإعراب أتي به لمعنى لا يصح إلا في الاسم فاختص بالاسم كالتصغير وغيره من خواص الاسم والدليل على ذلك أن الأصل عدم الإعراب لأن الأصل دلالة الكلمة على المعنى اللازم لها والزيادة على ذلك خارجة عن هذه الدلالة وإنما يؤتى بها لتدل على معنى عارض يكون تارة والمعنى الذي يدل عليه الإعراب كون الاسم فاعلا أو مفعولا أو مضافا إليه لأنه يفرق بين هذه المعاني وهذه المعاني

10 ـ الخصائص ، ابن جني ، 36/1

تصح في الأسماء ولا تصح في الأفعال فعلم أنها ليست أصلا بل هي فرع محمول على الأسماء في ذلك.

(ب) ـ وذهبَ الكوفيون إلى أن الإعراب أصل في الأسماء وفي الأفعال والأول هو الصحيح ونقل ضياء الدين بن العلج في البسيط أن بعض النحويين ذهب إلى أن الإعراب أصل في الأفعال فرع في الأسماء.

واحتجوا بأن الإعراب في الفعل يفرق بين المعاني فكان أصلا كإعراب الأسماء وبيانه قولك : أريد أن أزورك فيمنعني البواب إذا رفعت كان له معنى وإذا نصبت كان له معنى وكذلك قولك:لا يسعني شيء ويعجز عنك إذا نصبت كان له معنى وإذا رفعت كان له معنى آخر وكذلك باب الجواب بالفاء والواو نحو : لا تأكل السمك وتشرب اللبن وهو في ذلك كالاسم إذا رفعت كان له معنى وإذا نصبت أو جررت كان له معنى آخر.

مناقشة وتوضيح : أما إعراب الفعل فلا يتوقف عليه فهم المعنى بل المعنى يدرك بالقرائن المحققة به والإشكال يحصل فيه بالحركة التي لا يقتضيها المعنى لا بعدم الحركة ألا ترى أن قوله : {أريد أن أزورك فيمنعني البواب} لو سكنت العين لفهم المعنى وإنما يشكل إذا نصبتها وإنما جاء الإشكال من جهة العطف لا بالنظر إلى نفس الفعل إذ لا فرق بين قولك : يضرب زيد في الضم والفتح والكسر والسكون فإنه في كل حال يدل على الحدث والزمان وكذلك إذا قلت :{لم يضرب

ولن تضرب} فإن الفعل منفي ضممت أو فتحت أو سكنت وكذلك : {لا يسعني شيء ويعجز عنك} إذا فتحت أردت الجواب وإذا ضممت عطفت ولو أهملته لفهمت المعنى وكذلك : "لا تأكل السمك وتشرب اللبن"

والحاصل من ذلك كله أمر عرض بالعطف وحرف العطف يقع على معان فلا بد من تخليص بعضها من بعض فبالحركة يفرق بين معاني حرف العطف ولا يفرق بين معنى الفعل ومعنى له آخر.[11]

الإعراب في نظر النحاة المحدثين : فإذا كانت ظاهرة الإعراب من الدعامات التي يقوم عليها النحو العربي إلاّ أنها ظاهرة وجدت من يعارضها يدعو إلى تقويضها وتمتد هذه جذور هذه الحركة المناوئة للإعراب في العصر الحديث إلى مطلع القرن الماضي حين سادت البلاد العربية دعوات مظنونة تسعى إلى هدم بنيان النحو وقد وجهت تلك الدعوات حرابها إلى الإعراب متخذة أشكالا متنوعة.

ومن المتحمسين إلى منابذة الإعراب: لطفي السيد الذي أخرج الإعراب من ركائز اللغة ، وسلامة موسى الذي دعا إلى نبذ العربية برمتها واتخاذ العامية بدلا منها، وأنيس فريحة الذي نظر إلى الإعراب أنّه بقية البداوة ولا ينسجم مع روح العصر. [12] وغيرهم من المعاصرين

11 ـ مسائل خلافية في النحو ، أبو البقاء العكبري ، ص : 87-88

12 ـ التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر ، عبد الفتاح لاشين ، ص : 70 (بتصرف)

الذين يضمرون الكيد للعربية والدعوة إلى نبذها واستبدالها...فهذه الدعوات تنمّ عن شخصية مهزوزة ، وضحالة علم، وضيق أفق في الدراية، وهي دعوات هدامة لا تستند إلى أسس علمية. ولا زالت هذه الدعوات تتلوّن كالحرباء فتارة بالدعوة إلى تيسير النحو، وتارة أخرى في الرفق بطالب علم النحو وعدم إثقال كاهله بالتخريجات النحوية والتعقيدات وغيرها من الدعوات[13] الضالة المضلّة، وإن كان القصد منها لا يخفى على ذي بصيرة إلاّ أنها أثارت نقاشا علميا واسعا ودفعت عجلة البحث العلمي في ميدان البحث اللغوي في البلاد العربية إلى الأمام مما جعل اللغة العربية تستفيد مما جدّ من النظريات كما دفعت الغيورين من العلماء المخلصين البحثَ في تراثنا العلمي والمقارنة بينه وبين النظريات الغربية قصد الاستفادة والإثراء.

ونسجل أنّه ظهر فريق من النحاة مدافعا عن العربية عموما وعن الحركات الإعرابية خصوصا وردّ على هؤلاء المتقولين بالأدلة التي تدفع كلّ تشكيك في صلاحيته سواء من دعا منهم إلى التسكين أو من شكك في دلالة الإعراب على معان ونذكر منهم :

(أ) ـ الأستاذ رمضان عبد التواب الذي يرى أن الإعراب كان موجودا في اللغات السامية وهو أمر ينفي التزام بالتسكين أو أن تحريك الحروف لا يكون إلاّ لضرورة، كما أن أوزان الشعر ومعاييره تنفي هذا

13 ـ لقد سبق أن نشرنا ردّا على دعاة التيسير في ملّة اللسانيات راجع العدد 8و9 سنة 2005

التوجه ثمّ إن الأخبار التي وردت عن فِطنة العلماء العرب بإزاء الحد من اللحن في الصدر الأوّل لدليل ساطع على دلالة الحركات على معان، وهو ينوه إلى أن القرآن وصل إلينا معربا بالتواتر، يدلّ على أن حركات الإعراب كانت موجودة.[14]

(ب)ـ أما الأستاذ طه الراوي فيلمح إلى أن الحركات الإعرابية كانت من بين الأسباب التي استفزت النحاة إلى وضع النحو وذلك للحدّ من اللحن.[15]

وما ذكره الأستاذ الفاضل تترجمه واقعة أبي الأسود مع ابنته يروى أن سبب وضع النحو أن أبا الأسود دخل على ابنته بالبصرة فقالت له: يا أبت ما أشدُّ الحر متعجبة ورفعت(أشد)فظنها مستفهمة فقال: شهر ناجر فقالت: يا أبت إنما أخبرتك ولم أسألك فأتى علي (فقال يا أمير المؤمنين: ذهبت لغة العرب ويوشك إن تطاول عليها زمان أن تضمحل فقال له : وما ذاك ؟ فأخبره خبر ابنته فقال : هلم صحيفة ثم أملى عليه الكلام لا يخرج عن اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ثم رسم له رسوما فنقلها النحويون في كتبهم.[16]

وسواء كانت هذه الرواية أو غيرها هي التي كانت سببا في وضع النحو إلاّ أن الثابت لدى جمهور النحاة أن اللحن كان هو الدافع إلى

14ـ فصول في فقه اللغة ، رمضان عبد التواب ، ص : 373

15ـ نظرة في النحو ، طه الراوي ، ص : 332

16ـ المثل السائر ، ابن الأثير ، 30/1

ذلك هو الحركات الإعرابية. وأن بها (الحركات الإعرابية) نصل إلى معرفة المعاني المقصودة ، ونفرق بين الفاعل والمفعول وغير ذلك كما تبيّنه وظيفة الإعراب.

وظيفة الإعراب : أما وظيفة الإعراب فقد بيّنها أبو البقاء العكبري وغيره من النحاة كابن جني :

(1)ـ قال أبو البقاء: إن الإعراب فارق بيّن المعاني العارضة كالفاعلية والمفعولية والتعجب والنفي والاستفهام نحو : ما أحسن زيدا! وما أحسن زيدٌ؟ وما أحسن زيدٍ. فإن الحركات هنا هي الفارق بين المعاني وإذا ثبت أن الإعراب فارق بين المعاني فالفرق الحاصل عن الفارق يعرف تارة بالعقل كمعرفة أن الاثنين أكثر من الواحد وأقل من الثلاثة هذا معلوم بالعقل من غير لفظ يدل عليه، وتارة يعرف بالحس من السمع والبصر واللمس والذوق والشم فأنت تفرق بين زيد وعمرو في التسمية بما تسمعه من اللفظين وتفرق بين الأحمر والأبيض بحاسة البصر وبين الحار والبارد والناعم والخشن باللمس وبين الحلو والمر بالذوق وبين الريح الطيبة والخبيثة بالشم والإعراب من قبيل ما يعرف بحاسة السمع ألا ترى أنك إذا قلت: لإنسان افرق بين الفاعل والمفعول والمضاف إليه في نحو قولك :{ضرب زيد غلام عمرو} فإنه إذا ضم أولا وفتح ثانيا وكسر ثالثا حصل لك الفرق بألفاظه لا من طريق المعنى فإنك أنت قد تدرك هذا المعنى بغير لفظ فدل أن الإعراب هو لفظ الحركة.[17]

17 - مسائل خلافية في النحو ، أبو البقاء العكبري ، ص : 109

(2)- قال ابن جني : الإعراب هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ ألا ترى إنك إذا سمعت : أكرم سعيد أباه وشكر سعيدا أبوه علمت برفع أحدهما ونصب الآخر الفاعل من المفعول ولو كان الكلام سرجا واحدا لأستبهم أحدهما من صاحبه فإن قلت : فقد تقول : ضرب يحيى بشرى فلا تجد هناك إعرابا فاصلا وكذلك نحوه قيل: إذا اتفق ما هذه سبيله مما يخفى في اللفظ حاله ألزم الكلام من تقديم الفاعل وتأخير المفعول ما يقوم مقام بيان الإعراب فإن كانت هناك دلالة أخرى من قبل المعنى وقع التصرف فيه بالتقديم والتأخير نحو: أكل يحيى كمثرى لك أن تقدم وأن تؤخر كيف شئت وكذلك ضربت هذا هذه وكلم هذه هذا وكذلك إن وضح الغرض بالتثنية أو الجمع جاز لك التصرف نحو قولك : أكرم اليحييان البشريين وضرب البشر بين اليحيون وكذلك لو أومأت إلى رجل وفرس فقلت : "كلم هذا هذا" فلم يجبه لجعلت الفاعل والمفعول أيهما شئت لأن في الحال بيانا لما تعني وكذلك قولك : "ولدت هذه هذه" من حيث كانت حال الأم من البنت معروفة غير منكورة وكذلك إن ألحقت الكلام ضربا من الإتباع جاز لك التصرف لما تعقب من البيان نحو : ضرب يحيى نفسه بشرى أو كلم بشرى العاقل معلى أو كلم هذا وزيدا يحيى ومن أجاز : قام وزيد عمرو لم يجز ذلك في نحو : كلم هذا وزيد يحيى وهو يريد كلم هذا يحيى وزيد كما يجيز ضرب زيدا وعمرو وجعفر.[18]

18 - الخصائص ، ابن جني ، 35/1

ويقول : ألا ترى أن موضوع الإعراب على مخالفة بعضه بعضا من حيث كان إنما جيء به دالا على اختلاف المعاني.[19]

العلاقة بين الإعراب والمعنى: قد أجمع النحاة على أن الإعراب فرع المعنى وأنّ الصّلة بينهما وثيقة من جهة القراءات القرآنية، وإن تعددها ليس إرهاقا لكاهل طالب العلم كما يظن وإنّما لحكمة أرادها الله تعالى وتعددها تعدد للأحكام المستنبطة حسب الوقائع والنوازل وهذا بيانه :

(أ)- قوله تعالى : ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾البقرة/284 قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي **(فيغفر ويعذب)** بالجزم عطف على الجواب وقرأ بن عامر وعاصم بالرفع فيهما على القطع أي : فهو يغفر ويعذب.

وروي عن ابن عباس والأعرج وأبي العالية وعاصم الجحدري بالنصب فيهما على إضمار (أن) وحقيقته أنه عطف على المعنى كما في قوله: ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ البقرة/والعطف على اللفظ أجود للمشاكلة كما قال الشاعر :

ومتى مايع منك كلاما (يتكلم فيجبك بعقل.

قال النحاس: وروي عن طلحة بن مصرف **(يحاسبكم به الله يغفر)** بغير فاء على البدل وبها قرأ الجعفي وخلاد وروي أنها كذلك في مصحف ابن مسعود.

---

19 ـ الخصائص ، ابن جني ، 175/1

قال ابن جني: هي على البدل من **(يحاسبكم)** وهي تفسير المحاسبة وهذا كقول الشاعر :

رُوَيْدًا بَنِي شيْبَانَ بَعْضَ وَعِيدِكم تُلاقُوا غَدًا خَيْلِي عَلَى سَفَوانِ

تُلاقُوا جِيادًا لا تَحِيد عَنِ الْوَغَى إذَا مَا غَدَتْ في الْمَأْزَق الْمُتَدَانِي

فهذا على البدل وكرر الشاعر الفعل لأن الفائدة فيما يليه من القول قال النحاس: وأجود من الجزم لو كان بلا فاء الرفع يكون في موضع الحال كما قال الشاعر :

مَتَى تَأْتِهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِد [20]

(ب) ـ وقوله تعالى {وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ} قرئ برفع {يذرك} ونصبه وجزمه للخفة [21]

ـ قرأ نعيم بن ميسرة (ويذرك) بالرفع على تقدير المبتدأ أي: وهو يذرك أو على العطف على (أتذر موسى) أي : أتذره ويذرك.

ـ وقرأ الأشهب العقيلي (ويذرك) بالجزم إما على التخفيف للسكون بثقل الضمة أو على ما قيل فيه ﴿**وَأَكُنْ مِنْ الصَّالِحِينَ**﴾ في توجيه الجزم وقرأ أنس بن مالك بالنون والرفع ومعناه أنهم أخبروا عن أنفسهم بأنهم سيذرونه وآلهته.

ـ وقرأ الباقون {ويذرك} بالنصب بأن مقدرة على أنه جواب الاستفهام والواو نائبة عن الفاء أو عطفا على يفسدوا أي ليفسدوا

---

20 ـ الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، 423/3

21 ـ الإتقان في علوم القرآن ، السيوطي ، 544/1

وليذرك لأنهم على الفساد في زعمهم وهو يؤدي إلى ترك فرعون وآلهته.[22]

(ج) ـ وقوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ(22)﴾ **الواقعة/** قرئ بالرفع والنصب والجر فمن جر وهو حمزة والكسائي وغيرهما جاز أن يكون معطوفا على **(بأكواب)** وهو محمول على المعنى لأن المعنى يتنعمون بأكواب وفاكهة ولحم وحور قاله الزجاج وجاز أن يكون معطوفا على **(جنات)** أي: هم في جنات النعيم وفي **(حور)** على تقدير حذف المضاف كأنه قال وفي معاشرة حور.

قال الفراء: الجر على الإتباع في اللفظ وإن اختلفا في المعنى لأن (الحور) لا يطاف بهن قال الشاعر :

إِذَا مَا الْغَانِيَاتُ بَرَزْنَ يَوْمًا وَزَجَّجْنَ الْحَوَاجِبَ وَالْعُيُونَا

والعين لا تزجج وإنما تكحل وقال آخر :

وَرَأَيْتُ زَوْجَكِ فِي الْوَغَى مُتَقَلِّدًا سَيْفًا وَرُمْحَا

قال قطرب: وهو معطوف على الأكواب والأباريق من غير حمل على المعنى قال: ولا ينكر أن يطاف عليهم بالحور ويكون لهم في ذلك لذة .

ـ ومن نصب وهو الأشهب العقيلي والنخعي وعيسى بن عمر الثقفي وكذلك هو في مصحف أبيّ بن كعب فهو على تقدير إضمار فعل كأنه قال: ويزوجون حورا عينا والحمل في النصب على المعنى أيضا حسن لأن معنى يطاف عليهم به يعطونه.

---

22 ـ فتح القدير ، الشوكاني ، 235/2

ـ ومن رفع وهم الجمهور وهو اختيار أبي عبيدة وأبي حاتم فعلى معنى وعندهم (حور عين) لأنه لا يطاف عليهم بالحور وقال الكسائي: ومن قال (وحور عين) بالرفع وعلل بأنه لا يطاف بهن يلزمه ذلك في (فاكهة ولحم) لأن ذلك لا يطاف به وليس يطاف إلا بالخمر وحدها.

قال الأخفش: يجوز أن يكون محمولا على المعنى لأن المعنى لهم أكواب ولهم حور عين وجاز أن يكون معطوفا على (ثلة) و(ثلة) ابتداء وخبره (على سرر موضونة) وكذلك (حور عين) وابتداء بالنكرة لتخصيصها بالصفة كأمثال أي مثل (أمثال اللؤلؤ المكنون) أي الذي لم تمسه الأيدي ولم يقع عليه الغبار فهو أشد ما يكون صفاء وتلألؤا.[23]

(د) ـ قوله : ﴿إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾النساء/قرأ الجمهور بضم الظاء وكسر اللام ويجوز إسكانها ومن قرأ (ظلم) بفتح الظاء وفتح اللام وهو زيد بن أسلم وابن أبي إسحاق وغيرهما فلا يجوز له أن يسكن اللام لخفة الفتحة. فعلى القراءة الأولى: المعنى لا يحب الله أن يجهر أحد بالسوء بالقول إلا من ظلم فلا يكره له الجهر به.[24]

قال الشوكاني: (إلاّ مَنْ ظُلِمَ)على البناء للفاعل فالاستثناء منقطع والمعنى لكن الظالم يحبه أو لكنه يفعل ما لا يحبه الله تعالى فيجهر بالسوء والموصول في محل نصب وجوز الزمخشري أن يكون مرفوعا بالإبدال من فاعل (يحب) كأنه قيل : لا يحب الجهر بالسوء إلا الظالم

23 ـ الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، 204/7

24 ـ الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، 1/6

على لغة من يقول: "ما جاءني زيد إلا عمرو" بمعنى: "ما جاءني إلا عمرو" ومنه قول الله تعالى : ﴿لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾النمل /65 وهى لغة تميمية وعليها يقول الشاعر :

عشية ما تغنى الرماح مكانها ولا النبل إلا المشرفي المصمم

وقد نَقَلَ هذه اللغة سيبويه وأنكرها البعض وكفى بنقل شيخ الصناعة سندا للمثبت.[25] ونكتفي بما ذكرنا لضيق المجال ونحيل من أراد الزيادة على كتب القراءات وكتب التفسير فسوف يجد فيضا من السر من تعدد القراءات.

والإعراب مخلد في القرآن وحديث رسول الله وتراثنا الفكري وهو ما تميزت به العربية وإذا لم نراعه فالواجب ألاّ نسمي الكلام عربيا. فعلى الذي ذكرناه فإن حركات الإعراب ليست شيئا زائدا أو ثانويا وهي لم تدخل على الكلام اعتباطا وإنّما دخلت لأداء وظيفة أساسية في اللغة إذ بها يتضح المعنى ويظهر وعن طريقتها نعرف الصلة النحوية بين الكلمة والكلمة في الجملة الواحدة بحسب المعنى المراد، وكانت حركات الإعراب على النحو كلّه حتى سمي النحو بعلم الإعراب وليس هذا التعريف صحيحا لأن النحو أوسع من الإعراب وأشمل كما سبق وأن بَيَنَّاه.

اختلاف بين النحاة في دلالة الحركات على المعاني: يختلف الرأي في دلالة الحركات على المعاني الإعرابية بين النحاة إلى فريقين :

25 ـ روح المعاني ، الألوسي ، 2/6

الفريق الأول : رأي القائلين بعدم الدلالة على معان ومن هؤلاء :

(أ) ـ الخليل بن أحمد وهو أوّل من أشار إلى هذه المشكلة من القدماء ذكر سيبويه أنّ الخليل زعم أن الفتحة والكسرة زوائد وهنّ يلحقن الحروف ليوصل إلى التحكم به والبناء هو الساكن لا زيادة فيه**!!**.[26]

قال السيرافي شارحا ما قاله الخليل: يعني أنّ الفتحة تزاد على الحرف، ومخرجها من مخرج الألف وكذلك الكسرة من مخرج الياء، والضمة من مخرج الواو واستدلّ على ذلك بشيئين :

أحدهما : أنا نرى أن الضمة متى أشبعناها صارت واوا مثل قولنا : (زيدو ، والرجلو).

والثاني : ما قاله سيبويه حين ذكر الألف والواو والياء فقال : لأنّ الكلام منهن أو بعضهن.

(ب)ـ أما قطرب (وهو أبو عليّ محمد بن المستنير أخذ عن سيبويه)فقال: إنما أعربت كلامها؛ لأنّ الاسم في حال يلزمه السكون للوقف فلو جعلوا وصله بالسكون وأمكنهم التحريك جعلوا التحريك معاقبا للإسكان ليتبدّل الكلام ألا تراهم بنوا كلامهم على متحرك وساكن ولم يجعلوا بين ساكنين في حشو الكلمة ولا في حشو بيت ولا بين أحرف متحركة لأنّهم في اجتماع الساكنين يبطئون في كثرة

26 ـ الكتاب ، سيبويه ،

الحروف المتحركة ويستعجلون ، وتذهب الصّلة من كلامهم فجعلوا الحركة عقب الإسكان.[27]

تعقيب : وما قاله قطرب توضيح وبيان لرأي الخليل الذي ذكرناه وإلى هذا الرأي ذهب د/إبراهيم أنيس إلاّ أنّه يرى أن هذه الزوائد الإعرابية يلجأ إليها لأمور فنية وهو الموسيقى والانسجام يستدعيان هذه الزوائد الإعرابية، ومعنى هذا لأن هذه الحركات الإعرابية ليس لها مدلول، وأنها لم تكن تحدد المعاني في أذهان العرب الأقدمين ، وهي لا تعدو أن تكون حركات يحتاج إليها في كثير من الأحيان لوصل الكلمات بعضها.

ويتضح لنا مما سبق أنّ القدماء وقفوا عند حركات الإعراب وعلّلوا دخولها في الكلام، ووقفوا عند التنوين واستقرؤوا مواضع دخوله وصنفوا معانيه بحسب تلك المواضع.

الفريق الثاني : رأي القائلين أنّ الحركات تدلّ على معان

ونذكر منهم :

(أ) ـ قال أبو البقاء في معرض حديثه عن الأصل في علامات الإعراب الحركات: إن الإعراب دال على معنى عارض في الكلمة فكانت علامته حركة عارضة في الكلمة لما بينهما من التناسب.[28]

27 ـ الأشباه والنظائر ، السيوطي ، 89/1

28 ـ اللباب في علل البناء والإعراب ، أبو البقاء ، 54/1

(ب)- قال الزجاجي: إن الأسماء لما كانت لما تعتورها المعاني جعلت فاعلة ومفعولة ومضافة ولم يكن في صورتها وأبنيتها أدلّة على هذه المعاني جعلت حركات الإعراب تنبئ عن هذه المعاني فقالوا: {ضرب زيد عمرا} فدلّوا برفع زيد على أنّ الفعل له، وبنصب عمرو على أنّ الفعل واقع به. وقالوا: {ضُرب زيد} فدلّوا بتغير الفعل ورفع زيد على الفعل ما يسمّ فاعله ، وأن المعول قد ناب منابه ...وكذلك سائر المعاني جعلوا هذه الحركات دلائل عليها ليتسعوا في كلامهم ، ويقدّموا الفاعل إن أرادوا ذلك أو المفعول عند الحاجة إلى تقديمه ، وتكون الحركات دالة على المعاني.[29]

(ج) - وقال أبو حيان التوحيدي : والكلام يتغير المراد فيه باختلاف الإعراب، كما يتغير الحكم فيه باختلاف الأسماء، وكما يتغير المفهوم باختلاف الأفعال؛ وكما ينقلب المعنى باختلاف الحروف؛ ولقد قال رجل بالري كان نبيلاً في حاله جليلاً في مرتبته عظيماً عند نفسه: {اقعد حتى تتغذى بنا} . وهو يريد: {حتى نتغذى معنا}؛ فانظر إلى هذا المحال الذي ركبه بلفظه وإلى المراد الذي جانبه بجهله؛ ولهذا نظائر غير خافية عليك ولا ساقطةٍ دونك...[30]

(د) - وقال ابن فارس : إن الإعراب هو الفارق بَيْنَ المعاني. ألا ترى أن القائل إذَا قال: "مَا أحسن زيد" لَمْ يفرّق بَيْنَ التعجب والاستفهام

29 - الإيضاح في علل النحو ، الزجاجي ، ص : 70

30 - الإمتاع والمؤانسة ، أبو حيان التوحيدي ، ص : 149

والذمّ إلاَّ بالأعراب. وكذلك إذَا قال: {رب أخوك أخانا}و{وَجْهُك وجهُ حُرّ} و{وجهُك وجهٌ حرٌّ} وَمَا أشْبَه ذَلِكَ من الكلام المشْتَبه.

وقال: الإعراب من العلوم الجليلة الَّتِي خصت بهَا العرب وهو الفارق بَيْنَ المعاني المتكافِئَة فِي اللفظ وبه يعرف الخبر الَّذِي هو أصل الكلام، ولولاه مَا مُيّز فاعل من مفعول، ولا مضاف من مَنْعوت، ولا تَعَجُّبٌ من استفهام، ولا صَدْر من مصدَر، ولا نعتٌ من تأكيد.

وذكر بعض أصحابنا أن الإعراب يختص بالأخبار، وَقَدْ يكون الإعراب فِي غير الخبر أيضاً. لأنّا نقول: "أزيدٌ عندك؟" و "أزيداً ضربت؟" فقد عَمِل الإعراب وَلَيْسَ هو من باب الخبر.[31]

(هـ)- وقال البطليوسي: إن العرب قد تفرق بين المعنيين المتضادين بالحركات فقط واللفظ واحد ألا ترى أن الفاعل والمفعول ليس بينهما أكثر من الرفع والنصب فربما حدث المحدث بالحديث فرقع لفظة منه ينوي بها أنها فاعلة ونصب أخرى ينوي بها أنها مفعولة فنقل عنه السامع ذلك الحديث فرفع ما نصب ونصب ما رفع جهلا منه بما بين الأمرين فانعكس المعنى الى ضد ما أراده المحدث الأول.[32]

الترجيح : إن الإعراب دخل الكلام ليفرق بين المعاني من الفاعلية والمفعولية والإضافة ونحو ذلك والحجة أن الكلام لو لم يعرب لالتبست المعاني ألا ترى أننا إذا قلنا: {ضرب زيد عمرو، وكلم أبوك أخوك} لم يعلم الفاعل من المفعول.

---

31 ـ الصاحبي في فقه اللغة ، ابن فارس ، ص : 55 ـ 56

32 ـ الإنصاف للبطليوسي ، ص: 171

أما ما ذكره الخليل فإنّه لا ينفي دلالة الرفع والنصب والكسر على المعنى وإنّما أشار إلى أصل هذه الحركات فالضمة أصلها واو، والفتحة أصلها ألف، والكسرة أصلها ياء.

ويجب أن نفرّق بين تقرير الإعراب وتفسير المعنى وهما معا يرجعان إلى حكم واحد لأن النظر اللغوي راجع إلى تقرير أصل الوضع والآخر راجع إلى تقرير المعنى في الاستعمال كما قالوا في قوله تعالى: ﴿**وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ(73)**﴾ الواقعة/أي المسافرين وقيل: النازلين وضوء القواء وهي القفر.

وذكر علماء هذا الفن وقد تخالف طريق الإعراب لأجل صحة المعنى المراد، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ**﴾ آل عمران/ والقياس أن يكون **(ينصرون)** مجزومة لأنها معطوفة على مجزوم، ولكن لما كان المراد الإخبار بأنهم لا ينصرون أبداً ألغى العطف، وأبقى صيغة الفعل على حالها، لتدل على الحال والاستقبال، ولو جزم لما دل إلا على الحال.

هل الإعراب هو النحو؟ إن الإعراب ما هو إلاّ فصل من فصول النحو العربي وليس هو كل النحو العربي لأن لغات العالم كلّها ذات طبيعة نحوية مع أن أكثرها لا تعرف أواخر كلماتها فما الذي كان يبحث فيه المتخصصون في نحو هذه اللغات؟ أليس النحو الذي يبحثون فيه هو طرائق تأليف الكلام وقواعد ربط المفردات في جمل ليؤدي المعنى العام للجملة أغراض المتكلمين ومقاصدهم، وإذا كان الأمر كذلك، فلا

بد أن يكون لهذا الربط أدوات وصيغ وتراكيب تستخدمها كلّ لغة بحسب طبيعتها وحركية أصواتها ، وقد وجد الباحثون عن طبيعة النحو في مختلف اللغات أن في كلّ لغة (دوال ماهية) و(دوال نسبة). ودوال الماهية هي مواد اللغة المعجمية ودوال النسبة هي ما يطرأ على هذه المواد في أثناء تركيبها من تقديم وتأخير وصيغ ولواحق وزوائد وعلامات وأدوات نحوية هي (كلمات فارغة) من المضمون المعجمي ولكنها حين توصل بغيرها تعطي مضمونها النسبي الرابط كالحروف ، والأدوات والأفعال المساعدة.

والنحو بمفهومه الحقيقي هو البحث في دلالة النسبة هذه على الفصائل والمعاني النحوية المختلفة ونحن لا ننكر أن الإعراب من طبيعة اللغات السامية واللاتينية القديمة ولكنه ليس هو المعنى النحوي ولا الدال على المعنى النحوي بل هو (علامةُ) أنّ الكلمة تحمل معنى نحويا خاصا ، فالفاعلية والمفعولية مثلا معنى من هذه المعاني النحوية دلّ عليه إسناد الفعل بدال هو: إما تركيب الجملة أو صيغة الفعل ،وعلامة ذلك (الضمة) أو (الفتحة) بدليل أن هذه العلامة تفقد (عَلَاميّتها) أحيانا- كما في المبنيات - مع بقاء المعنى النحوي ، وهذا يدلّ على أنّه أثر من آثار الإسناد لا الإعراب.[33]

33- البحث النحوي عند الأصوليين ، د/ مصطفى جمال الدين ، ص : 298 - 299 (بتصرف)

والخليل وسيبويه ومن سار على نهجهما لم يكون الإعراب هو غاية بحثهما ولم يكونوا ينظرون إلى أن الإعراب هو علم النحو بل إن النحو عندهم علم مستنبط بالقياس والاستقراء من كلام العرب والقياس.[34]

ولعلّ ما نورده من تعريفات للأعلام النحاة قديما وحديثا تحدد موضوع النحو بدقة وتبيّن أن موضوع النحو أشمل وأعمّ من الإعراب وما هذا الأخير إلاّ فصل من فصوله وجزء من مباحثه :

(1) ـ **عرفه ابن جني** حين فقال: " النحو أن تنحو سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير والإضافة والنسب والتركيب وغير ذلك ليلحق مَنْ ليس من أهل العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها وإن لم يكن منهم وإن شذّ بعضهم عنها ردّ به إليها.[35]

ومما يؤكد حقيقة ما ذكرناه من أن الإعراب ما هو إلاّ فصل من فصول النحو العربي تعريفات النحاة للنحو فقد وردت مبيّنة مجال هذا العلم ، وحددت غايته وفائدته نذكر منها :

(2) ـ **عرفه ابن الطراوة:** النحو تسدي الذهن للتمييز بين الاستقامة في الكلام والإحالة"[36] مع إقرارنا أن تعريف أبي الحسن بن الطراوة هو نقد نزيه ودعوة صادقة إلى إعادة النظر في مناهج النحاة.

---

34 ـ اللباب في علل البناء والإعراب ، 40/1

35 ـ الخصائص ، ابن جني ، 34/1

36 ـ ابن الطراوة وأثره في النحو ، د/محمد إبراهيم البناء ، ص : 66 لنا وقفة أخرى عند هذا التعريف وشرحه بالتفصيل . إن شاء الله

شرح وبيان: كأنه ينبّه الدارسين إلى أنّ مهمة النحوي ليست وقفا على العلم بالقوانين وإنّما هي في نظره أعمق وأبعد حين تمتد إلى مدارسة النصوص بحثا عن منهج اللغة وطرائقها في التعبير، ومن خلال هذه المدارسة يتكون لدى الدارس الحسّ اللغوي الذي يَقِفه على ما يكون به الكلام مستقيما وصوابا، ويكون بدونه مستحيلا وخطأ. ومن هنا كان في كثير من ردوده على الفارسي يذكر أنّ ما قاله ليس عليه دليل من شعر أو قرآن فتراه في باب إعراب الأسماء يقول: جميع ما يأتي بعد هذا الباب إلى باب الفاعل ومنه ما يخالف نصّ القرآن. وكأني بابن الطراوة يحذر النحاة من العكوف على كتب النحو، وصرف الهمم إليها وحدها فمن يكون هذا نهجه فسوف يزداد بُعدا عن العربية بمقدار بعده عنها نصّا وأسلوبا...[37]

(3) ـ أما ابن كمال باشا فقد بيّن مجال النحو حين تعرض للعلاقة بين علمي النحو والمعاني: "ويشارك النحوي صاحب المعاني في البحث عن المركبات إلاّ أن النحوي يبحث عنها من جهة هيأتها التركيبية صحة وفسادا ودلالة تلك الهيئات على معانيها الوضعية على وجه السداد وصاحب المعاني يبحث عنها من جهة حسن النظم المعبر عنه بالفصاحة في التركيب وقبحه".

وقال: "فما يبحث عنه في علم النحو من جهة الصحة والفساد يبحث عنه علم المعاني من جهة الحسن والقبح وهذا معنى كون علم

37 ـ ابن الطراوة النحوي ، د/محمد إبراهيم البنا ، ص : 67

المعاني تمام علم النحو".[38] والذي ذكره صريح في أن بحث علم النحو لا يقف به النحاة عند حدّ الإعراب والبناء فحسب، وإنما مجاله أعمق من ذلك وأشمل. وقد أشار إلى هذا عبد القاهر الجرجاني إلى هذا في دلائل الإعجاز حين قال: "وما النظم إلى أن تتوخى معاني النحو" فقد ربط نظم الكلام في توخي معاني النحو.

(5) ـ **تحدث الزجاجي** عن الفائدة من تعلم النحو فقال: "الفائدة فيه الوصول إلى التكلم بكلام العرب على الحقيقة صوابا غير مبدل ولا مغيّر، وتقديم كتاب الله الذي هو أصول الدين والدنيا والمعتمد ومعرفة أخبار النبيّ (وإقامة معانيها على الحقيقة لأنّه لا تفهم معانيها على صحة إلاّ بتوفيتها حقوقها من الإعراب.[39]

فالزجاجي هاهنا لا يرى الفائدة من النحو إعراب أواخر الكلمة كما يتوهمه بعض منتقدي النحو العربي وإنما الفائدة من تعلمه إقامة المعاني على حقيقتها ولا يتأتى ذلك إلاّ بتوفيتها حقّها من الإعراب ونطقها نطقا سليما غير محرف ولا مغيّر.

إن النحاة يبحثون عن الأساليب التي لا يقال للناطق بها قد جئت بما لا تتكلم به العرب، فإذا أجازوا في بعض التراكيب وجهين أو وجوها من الإعراب فمعنى ذلك أنّ هذين الوجهين أو تلك الوجوه قد تكلّم بها العرب عند تأدية المعنى الأصلي لذلك التركيب يقولون هذا ولا ينفون

38 ـ دراسات في اللغة وتاريخها ، الشيخ الخضر ، ص : 184

39 ـ الإيضاح في علل النحو ، الزجاجي ، ص: 95

أن يكون لكلّ وجه من الوجهين أو الوجوه أثر في تصوير المعنى الأصلي يغاير الآثار التي قد يحدثها غيره من الوجوه، فهم إذا اختلفوا في وجه من وجوه الإعراب يجيزه طائفة ويمنعه آخرون، فإن اختلافهم يرجع إلى أنّ هذا الوجه قد نطق به العرب في مثل هذا التركيب أو لم ينطقوا وبعد أن يقوم الشاهد على جواز وجهين أو وجوه في التركيب، قد ينبهون إلى ما يفترق به الوجهان أو الوجه من الأثر في رسم المعنى الأصلي وتصويره وإن صحّ أنهم لم ينتهوا في جدلهم إلى كلمة فاصلة فلأنّ المجيز لبعض الوجه لم يقم الشاهد المقنع لخصمه من كلام فصيح أو قياس صحيح.

إن موضوع النحو عند الأعلام النحاة هو الهيئة التركيبية للكلام العربي، وأن الهدف منه الأمن من الخطأ في التأليف والقدرة على الفصاحة والإفهام فقد جاءت تعريفاتهم للنحو بشكل يضمن الوفاء بما حدّد له من موضوع. لكن أكثر المتأخرين حصروا موضوع بحثه في دائرة ضيقة فجعلوا موضوعه: (الكلم العربية من حيث ما يعرض لها من الإعراب والبناء)[40] ولذلك أطلق هذا الفريق على النحو اسم **(علم الإعراب)** يقول الزمخشري في معرض حديثه عن افتقار الباحثين إلى النحو: "وافتقاره إلى العربية بيّن لا يدفع ومكشوف لايتقنع ويرون الكلام في معظم أبواب أصول الفقه ومسائلها مبنيا على علم الإعراب

40 ـ حاشية الصبان على الأشموني ، 15/1

والتفاسير مشحونة بالروايات عن سيبويه والأخفش والكسائي والفراء وغيرهم من النحويين البصريين والكوفيين.[41]

والدارس للنحو في مصادره الأولى يجد أن النحاة لم يقصروا على البحث في أواخر الكلم وإنهم بحثوا في أحوال التأليف من كلّ ناحية تدخل في موضوع علمهم ولا نسلم لهم حين قالوا منتقدين النحاة وحسبوا أن النحو هو الإعراب: "أنهم حرموا أنفسهم وحرموا من اتبعهم من الإطلاع على كثير من أسرار العربية وأساليبها المتنوعة" ولا يسعنا إلا أن نقرّ هاهنا أنّ النحاة القدامى قد دققوا النظر في أسلوب الكلام من جهتين:

الأولى: جهة صحة تأليف الكلام ونسجه بحيث لا يعد خارجا عن العربية محكوما عليه باللحن وبعبارة أخرى يكون الكلام مطابقا لأحد الأساليب التي يؤدي بها العرب المعنى الأصلي بليغا أو غير بليغ وهذه الجهة هي التي يبحث فيها النحاة .

الثانية: جهة أخذ الكلام مرتبة من المراتب الزائدة على صحة التأليف عربية أعني مراتب حسن البيان وهذه الجهة هي التي يبحث عنها علماء البلاغة .

وإذا درسنا الميراث النحوي والبلاغي بإنصاف ونزاهة وجدنا كلا الفرقين قد قطعوا في البحث عن فقه الأساليب ودقائق التصور بها

41 ـ المفصل في صنعة الإعراب ، الزمخشري ، 18/1

أشواطا واسعة وبلغوا فيها إلى غايات بعيدة، فدعوى أنهم حرموا أنفسهم أو حرموا أتباعهم من الإطلاع على كثير من أسرار العربية مبنية على أنّ النحاة قد ضيقوا بحث علم النحو وقد ثبت لدينا أنهم لم يضيقوه ولكنهم لم يريدوا أن يتعدوا حدوده إلى موضوعات يُبْحَث عنها في علوم أخرى كعلم اللغة وفقهها أو علوم البلاغة.

يقول العلامة د/عبد الرحمن الحاج صالح : ولولا كتاب سيبويه لما كنّا نستطيع أن نعرف إلى أيّ درجة

من العمق العلمي بلغت هذه الأفكار وذلك لغزارة ما يحتوي عليه الكتاب من المعلومات وكذلك ما وصل إلينا من الشروح الضخمة للكتاب . وقد يتعجب من يقرأ أو يسمع ذلك من أن يكو النحو العربي الذي أبدعه هؤلاء في المستوى العلمي الذي بلغته اللسانيات الحديثة أو يفوقه من بعض الوجوه بعد أن مضى عليه أكثر من ألف سنة فزيادة لما قلناه من أن الكثير من الأفكار العلمية قد تمضي عليها قرون وهي مختفية حتى تأتي حضارة أخرى تكتشفها من جديد وذلك مثل كروية الأرض ودورانها حول الشمس (عند اليونان قبل بطليموس) والدورة الدموية الجزئية عند ابن النفيس وقوانين تطور الحضارة عند ابن خلدون والبنوية اللغوية عند علماء الهنود في القرن الرابع قبل الميلاد وغير ذلك.

وقد يكون بعض هذه الأفكار قد اطلع عليها من نسبت إليه من المحدثين، وقد يسكت عن المصدر الذي استقى منه وذلك مثل مخترع الجبر المزعوم (في أوروبا) أو حساب المثلّثات وغير ذلك.

إن النحو العربي الذي نتحدث عنه هو النحو الأصيل نحو الخليل بن أحمد وسيبويه ومن سار على نهجهم لا النحو الذي نجده عند ابن مالك وشراح ألفيته وكتبه فالتصور العلمي يختلف فيهما تماما فالأوّل مبني على المنطق العربي الأصيل وأما الثاني فهو ما أجمع الناس على أنّه مبني على المنطق اليوناني.[42]

التفاعل بين الدلالة والإعراب : وهناك قضية هامة لابد من إثارتها وهي قضية اللفظ والمعنى فإننا نرى أنها ليس قائمة حول أصل المادة اللغوية وطريقة وضعها أو الاصطلاح عليها وإنما كان الإعراب مما أثار حسهم فهو عندهم من العلوم الجليلة التي خصت بها العرب، وهو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ. وبه يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام ولولاه ما ميّز بين فاعل من مفعول ولا مضاف من منعوت ولا تعجب من استفهام ولا صدر من مصدر ولا نعت من توكيد.[43]

وإن الإعراب من الظواهر النحوية في العربية، وميزة من مميزاته التي هي من بقايا ما عرفت به اللغات السامية قد تكون العربية أمّ للغات السامية الأخرى ويعجبني هنا قول د/أحمد سليمان ياقوت حين تساءل لما لا تكون العربية هي أمّ للغات السامية لكونها معربة مثل اللغات الأخرى المعربات وكانت أصلا لغيرها من اللغات غير المعربة فيقول :

42 ـ دراسات والبحوث في اللسانيات العربية ، د/عبد الرحمن الحاج صالح .

43 ـ الصاحبي في فقه اللغة ، ابن فارس ، ص : 42

إننا إذا تتبعنا منهج المقارنة اللغوية اتضح لنا أن اللغات الأمهات كانت تتميز بالإعراب : فالسنسكريتية واليونانية واللاتينية كانت لغات معربة، ومن هذه اللغات المعربة انبثقت لغات أخرى غير معربة فمن اللاتينية تفرعت الفرنسية والبرتغالية والألمانية...ومن السنسكريتية تفرعت اللغة الفارسية واللغات الهندية الحديثة ومن اليونانية تفرعت اللغات اليونانية الحديثة[44] فما المانع أن تكون اللغة العربية هي الأصل الذي تفرع عنه باقي الساميات غير المعربات.[45]

وختاما ونشير إلى أنّ الأمر المتعارف من كلام العرب والشيء المعقول من لسانهم ومعلوم من مذاهبهم ومن عادة العرب أن تتكلم بطباعها وبما أودع الله تعالى في لسانها من البيان الذي يحصل به علم المعاني عند السامعين فمن كمل معرفته من الناس بلسانها واستدرك مرادهم بكلامهم بما ذكرنا من لغتهم وعرفه من لسانهم وهذا مثل وجوه الإعراب من الرفع والنصب والخفض فإنهم لم يقولوا: إن لساننا في الإعراب كذا وكذا ولكن تكلمت بطباعها على وجوه من الإعراب فمن عرف لسانهم عرف وجوه الإعراب من كلامهم.

وإن الواضع كما وضع الألفاظ لإفادة المقاصد الباطنة وغيرها وضع الإعراب لإفادة المعاني الطارئة على بعضها بالتركيب توفية لكمال المقصود مع الاختصار ولا يفيد كون المعنى متوقف على الربط حركة

44 ـ علم اللغة ، عليّ عبد الواحد وافي ، ص : 115

45 ـ ظاهرة الإعراب في النحو العربي ، أحمد سليمان ياقوت ، ص : 5

الإعراب في سائر القضايا إذ تخفى هذه الحركة في المبني والمعتل مقصورا كان أو منقوصا بل وفي المعرب بها إذا وقف عليه بالسكون والأظهر أنه أي الرابط بينهما فعل النفس وهو الحكم النفسي بالخبر على المبتدأ ثبوتا أو نفيا ودليله أي فعل النفس هذا لأنه أمر مبطن لا يوقف عليه إلا بتوقيف من الرابط الضم الخاص (أي التركيب الخاص) الموضوع نوعه لإفادة ذلك الربط لعمومه.

وأما الحركة فعند ظهورها لفقد مانع منه يتأكد الدال لتعدده حينئذ وإن لم يظهر لمانع انفرد الضم الخاص (أي التركيب الخاص) بالدلالة على ما بينهما من الربط وبه كفاية.

والإعراب من أبرز خصائص العربية وهو خاصية قديمة قدم اللغة نفسها وهذا بإجماع علماء العربية ولم تكن العربية مجردة من الإعراب ثمّ احتاج إليه المتكلمون فابتدعوه، وإنّ هذه الصفة التي بلغتنا وعرفها أهلها في عهدهم هي التي بلغتنا وورثناها. وأنّ النصوص التي وصلت إلينا من أدبهم وشعرهم هي نصوص معربة، وإنّ أقدم كتاب وصل إلينا هو القرآن الكريم وصل إلينا معربا وهو الذي يحتج به على صحة تلك وكذا الأحاديث النبوية دليل على وجود الإعراب.

وقد نقل إلينا علماء الأصول أن الجهل بالإعراب ومعاني كلام العرب ومجازاتها جعل كثيرا من رواة الحديث لا يفرقون بين المرفوع والمنصوب والمخفوض ولعمري لو أن العرب وضعت لكل معنى لفظا يؤدي عنه لا يلتبس بغيره لكان لهم عذر من ترك تعلم الإعراب ولم

يكن لهم حاجة إليه في معرفة الخطأ من الصواب ولكن العرب قد تفرق بين المعنيين المتضادين بالحركات فقط واللفظ واحد ألا ترى أن الفاعل والمفعول ليس بينهما أكثر من الرفع والنصب فربما حدث المحدث بالحديث فرفع لفظة منه ينوي بها أنها فاعلة ونصب أخرى ينوي بها أنها مفعولة فنقل عنه السامع ذلك الحديث فرفع ما نصب ونصب ما رفع جهلا منه بما بين الأمرين فانعكس المعنى إلى ضد ما أراده المحدث الأول.

ومما أخذناه عن أساتذتنا "إن أعظم ما يجب على الطالب لعلوم القرآن الراغب في تجويد ألفاظه وفهم معانيه ومعرفة قراءاته ولغاته وأفضل ما القارئ إليه محتاج معرفة إعرابه والوقوف على تصرف حركاته وسواكنه يكون بذلك سالما من اللحن فيه مستعينا على أحكام اللفظ به مطلعا على المعاني التي قد تختلف باختلاف الحركات متفهما لما أراد الله به من عباده إذ بمعرفة حقائق الإعراب تعرف أكثر المعاني وينجلي الإشكال فتظهر الفوائد ويفهم الخطاب وتصح معرفة حقيقة المراد".[46]

وبعد أنْ بينّا أنّ الإعراب ليس هو النحو بل هو جزء منه وأنّ علم النحو ليس غاية في ذاته وأنّ الإعراب ليس دراسة أواخر الكلمات كما يتوهمه البعض، وإنّما هو علم نشأ في أحضان القرآن الكريم ابتداء

46 ـ مشكل إعراب القرآن ، مكي بن أبي طالب القيسي ، 63/1

وسيبقى خادما ووسيلة لفهمه وقد بيّنا أن كلّ محاولة إبعاده عن الغاية التي من أجلها وُجِدَ بدعوى العصرنة والحداثة فهي دعوة ضالة مضلة.ولسنا ضد مجاراة العصر وما يحدث من نظريات علمية مفيدة ولكننا ضد الإمعية والتقليد والزراية بتراثنا الأصيل، والتقول على أعلامنا الفطاحل وتحميلهم ما لم يهدفوا إليه لا تلميحا ولا تصريحا وأن القواعد العلمية تقتضي الصدق في القول والأمانة في النقل. وبالله تعالى التوفيق.

فهرس أهم المصادر والمراجع :

1. **لسان العرب ،** ابن منظور ، دار صادر ، بيروت ، 1956م
2. **أسرار العربية ،** أبي البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباري، تحق : د/فخر صالح قداره بيروت: دار الجيل، 1995/1415 ط : 1
3. **أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك،** ابن هشام، بيروت : دار الجيل، 1979 ، ط : 5
4. **اللباب في علل البناء والإعراب،** أبو البقاء محب الدين عبد بن الحسين بن عبد الله ، تحق : غازي مختار طليمات دمشق : دار الفكر ط : 1
5. **الخصائص ،** ابن جني (أبو الفتح عثمان)، تحق : محمد علي النجار ، القاهرة : 1952/1956
6. **الإتقان في علوم القرآن ،** جلال الدين السيوطي ، بيروت المكتبة الثقافية1973
7. **مسائل خلافية في النحو ،** أبو البقاء العكبري ، تحق: محمد خير الحلواني ، دار النشر ، بيروت ، ط : 1 ، 1992
8. **المفصل في صنعة الإعراب ،** الزمخشري ، تحق: د/أبو ملحم ، بيروت : دار مكتبة الهلال ، 1993م ط : 1
9. **التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر ،** عبد الفتاح لاشين ، الرياض ، دار المريخ ، 1980م

10. **نتائج الفكر في النحو** ، السهيلي ، تحق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، والشيخ علي محمد معوض ، دار الكتب العلمية ، ط : 1 ، 1412هـ/1992م

11. **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع** ، جلال الدين السيوطي د/ عبد العال سالم مكرم، الكويت: دار البحوث العلمية 1400هـ/1980م ط:1

12. **المثل السائر** ، ابن الأثير ، تحق : محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 1995

13. **الجامع لأحكام القرآن** ، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، القاهرة:م.دار الكتب 1387/1967

14. **فتح القدير** ، محمد بن علي بن محمد الشوكاني ، بيروت : دار الفكر ، بدون تاريخ

15. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني** ، محمود الألوسي ، دار إحياء التراث ، بيروت

16. **البحث النحوي عند الأصوليون** ، مصطفى جمال الدين ، بغداد ، دار الرشيد ، 1980م

17. **أبو الحسن بن الطراوة وأثره في النحو** ، د/ محمد إبراهيم البناء ، تونس ، ط : 1400هـ/1980م

18. **دراسات في اللغة العربية وتاريخها** ، الشيخ الخضر ، المكتب الإسلامي ، ط : 2 ، 1380هـ/1960م

19. **كشاف اصطلاحات الفنون ،** محمد التهانوي ، بيروت : م.شركة الخياط

20. **رسالتان في اللغة ،** علي بن عيسى الرماني ، تحقيق إبراهيم السامرائي ، دار الفكر ، عمان ، 1984

21. **الإيضاح في علل النحو ،** الزجاجي ، تحق : د/ مازن مبارك دار الكتاب اللبناني بيروت ، 1974

22. **الإيضاح في علل النحو ،** الزجاجي ، ص: 95

23. **القراءات وأثرها في النحو العربي والفقه الإسلامي[1]** ، د/ التواتي بن التواتي ، مطبعة العربية ، [1] : 1 ، سنة 2005

24. **الفصول المفيدة في الواو المزيدة ، أبو سعيد خليل العلائي ،** تحق: د/حسن موسى الشاعر ، ط : 1 سنة 1990 عمان

25. **اللغة بين المعيارية والوصفية ،** تمام حسان ، مكتبة الأنجلو المصرية ، 1958

26. **دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ،** صحح أصله الشيخ العلامة محمد عبده ، مطبعة السعادة

27. **الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ،** أحمد بن فارس ، تحق: د/مصطفى الشويمي بيروت:م. بدران للطباعة والنشر 1963/1382

28. **شرح الكافية في النحو** ، رضي الدين الإستربادي ، الأستانة ، 1275 هـ

29. **ظاهرة الإعراب في النحو العربي** ، أحمد سليمان ياقوت ، ديوان المطبوعات ، الجزائر ، 1983

30. **شرح الأشموني** ، تحق : محمد محيي الدين عبد الحميد مصر : مطبعة الحلبي ، 1939م ، ط: 2

القياس النحوي في عصر ماقبل سيبويه خلاف أم اختلاف؟

أ ـ خالد بوزياني

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة عمار ثليجي بالأغواط

إن المتتبع للدراسات النحوية في عصر ما قبل سيبويه يدرك أهمية القياس عند علماء النحو في تلك المرحلة، ومما يستدعي تدقيق النظر أيضا تلك التفردات التي تميز بها بعضهم، ونطالع في كتب تراجم النحويين أقوالا تشير إلى أن ابن أبي إسحاق الحضرمي كان شديد تجريد القياس[1]، وأنه مع تلميذه عيسى بن عمر يطعنان على العرب[2] ، وأن أبا عمرو بن العلاء أوسع علما بكلام العرب[3] ،وليونس بن حبيب قياس في النحو ومذاهب يتفرد بها[4] ،والخليل بن أحمد سيد قومه وكاشف قناع القياس في عصره[5].

1 ـ ينظر ابن سلام الجمحي، طبقات الشعراء1/14

2 ـ ينظر المصدر نفسه 1/16

3 ـ ينظر المصدر نفسه 1/14

4 ـ السيوطي بغية الوعاة ص 426

5 ـ ابن جني الخصائص 1/361

فلو تصفحنا هذه الكتب بعناية وبحثنا بدقة عن معاني تلك الكلمات، لأمكننا القول بوجود تباين واختلاف في منهج وطريقة كل عالم في تطبيق القياس على مسائل النحو.

أما الاعتقاد بوجود خلاف بين العلماء في تلك المرحلة الحاسمة من الدرس النحوي فلم يكن واردا، ولذا يجب أن نزيل اللبس عن الفرق بين الخلاف والاختلاف، فالاختلاف يكون تلقائيا بدون قصد، فقد اختلف مع شخص ما في مسألة معينة وقد أخالفه فيها عن قصد، يقول ابن منظور:" الخلاف المضادة وقد خالفه مخالفة وخلافا...وخالفه إلى الشيء عصاه إليه أو قصد بعد ما نهاه عنه، وهو من ذلك في التنزيل العزيز؟وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه؟.." [6]

وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن عصر ما قبل سيبويه لم يتوج بأي خلاف يذكر عدا بعض الاختلافات المنهجية التي يمكن أن نعدها نواة لبروز الخلاف المدرسي الذي ظهر في مرحلة لاحقة من الدرس النحوي، فليس من الموضوعي إذن أن نقول بنشأة الخلاف في مرحلة لم تكتمل فيها معالم الدرس النحوي ومصطلحاته، ولذا يمكننا أن نعتبر هذه الاختلافات خطوة نحو الخلاف.

وهنا لا أتفق مع الدكتور مختار أحمد ويرة حين قال:"...وهذا الخلاف كان يحدث بين أصحاب المذهب الواحد وتلاميذ المدرسة

6 ـ ابن منظور، لسان العرب مادة خلف 90/9

الواحدة، فسيبويه مثلا له بعض الملاحظات على أستاذيه الخليل ويونس ولذا نجد في كتابه(زعم الخليل وزعم يونس) وهذا القول ينم على خلاف في وجهة النظر التي أيدها الخليل أو يونس ولم يوافق عليها تلميذهم سيبويه"[7]، وهذا ماذهب إليه الدكتور سعيد الأفغاني حين قال:"أنت كثرا ما تجد سيبويه يورد لشيخيه يونس والخليل أقوالا يخالفها فيقول (زعم الخليل..زعم يونس)"[8].

إن هذه الآراء ليس لها أي أساس من الصحة، والاعتقاد بأن الفعل **زعم** معناه البعد عن الصواب والخطأ فهذا أيضا بعيد كل البعد عن الحقيقة اللغوية، فلو رجعنا إلى معاجم اللغة وجدنا أن الفعل **زعم** بمعنى قال، يقول ابن منظور:"الزعم..القول وقيل هو القول يكون حقا ويكون باطلا، وأنشد ابن الأعرابي لأمية في الزعم الذي هو حق:

وَأني أَذينٌ لكم أنـــه سيُنجزكم ربكم ما زعم[9]

ومن معاني زعم التكفل يقول ابن فارس:"زعم بالشيء إذا تكفل به، قال عمرو بن شاس:

تعاتبني في الرزق عرسي وإنما على اله أرزاق العباد كما زعم[10]

---

7 ـ مختار أحمد ويره، دراسة في النحو الكوفي من خلال معاني القرآن للفراء.ط1 دار قتيبة بيروت 1990 ص306

8 ـ سعيد الأفغاني، في أصول النحو ط.2 دار الفكر دمشق 1964 ص 176

9 ـ لسان العرب مادة زعم 264/12

10 ـ ابن فارس معجم مقاييس اللغة 10/3 وأيضا ينظر ابن منظور لسان العرب 265/12

وفي كتاب سيبويه أدلة قاطعة ورد فيها الفعل زعم لم يخالف فيها سيبويه الخليل ولا يونس،وسنكتفي هنا بدليل دامغ على ذلك، يقول سيبويه:"هذا باب يكرر فيه الاسم في حال الإضافة، ويكون الأول بمنزلة الآخر، وذلك قولك: يا زيدَ زيدَ عمرو ويا زيدَ زيدَ أخينا زعم الخليل رحمه الله ويونس أن هذا كله سواء وهي لغة لعرب جيدة، وقال جرير:

يا تيمَ تيمَ عدي لا أبا لكم لا يلقينكم في سوءة عمر"[11]

وعلى هذا فإنني أميل إلى ذهب إليه الدكتور أحمد مكي الأنصاري، حين رأى أن المدرسة البصرية قد اشتملت على تيارات ثلاثة، إلا أنني أتفق معه لما اعتبرها مدارس مستقلة بقوله:"فهذه التيارات أشبه ما تكون بالمدارس المتعددة داخل المدرسة البصرية الواحدة"[12]، ثم يقول في موضع آخر :"..كل تيار منها يمثل مدرسة مستقلة داخل المدرسة البصرية الأم"[13].

فلا يمكننا إذن اعتبار وجود مدارس نحوية مستقلة في هذه الفترة المبكرة من الدرس النحوي، فالمدرسة تحتاج إلى زمن طويل ومحاولات متتابعة لنضوج المنهج وظهور المبادئ العامة في صياغاتها النهائة.

11 ـ سيبويه الكتاب 205/2

12 ـ أحمد مكي الأنصاري، يونس البصري ص 67

13 ـ المرجع نفسه ص78

ومما يستدعي الاهتمام هو ما أشار إليه الدكتور أحمد مكي الأنصاري عندما رأى أنه كان يوجد في البصرة ثلاثة تيارات متباينة النظرة إلى القياس، وهذه التيارات هي: [14]

أ- التيار القياسي : بزعامة عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي وتلميذه عيسى بنة عمر وأبرز خصائص هذا التيار تجردي القياس وعد الأخذ بالمسموع إذا خالفه .

ب- التيار المنهجي : بزعامة أبي عمر و بن العلاء وتلميذه يونس بن حبيب ومن أهم دعائمه التقيد بالنصوص والتمسك بالسماع ولو بأقل الشواهد ، فهو لا يخرج عن طبيعة اللغة.

ج- التيار الخليلي : ويمثله الخليل بن أحمد وتلميذه وسيبويه ويشترك مع التيار القياسي في اصطناع القياس والميل إليه ولكنه يختلف معه في استخدامه .

إن هذا التقسيم معقول إلى حد بعيد لكن إذا ما نظرنا بعمق إلى كل تيار وجدناه لا يتقيد بالمنحى الذي رسمه لنفسه ، فالدكتور أحمد كي الأنصاري وضع ما يشبه الحدود الفاصلة بين هذه التيارات دون أن يشير إلى النقاط المشتركة أو التداخل بينها ، ولذلك فإنني سأعتمد على موازنتين لتوضيح الاختلافات والتداخلات بين التيارات البصرية في تطبيق القياس في عصر يونس بن حبيب .

14 - ينظر المرجع نفسه ص322

الموازنة بين التيارات الثلاثة من حيث الاختلافات :

التيار القياسي :

ابن إسحاق الحضرمي : ذكر أصحاب تراجم النحويين أن أول من بعج النحو مد القياس وشرح العلل [15] وكما أشرت سابقا فإن أبي إسحاق لا يعتبر مبتكر القياس النحوي ، وإنما هو أول من شقه وفرعه ، فكلمة بعج تفيد التوسع وكلمة مد ، معناها طول ، فنقول مد الله في عمره طول له [16] ، وبهذا يصبح المعنى من العبارة توسيع دائرة القياس ، وعلى هذا الأساس يعود الفضل إلى ابن أبي إسحاق في اهتدائه إلى المفتاح السحري المؤدي إلى الطريق الذي ينبغي أن يسلكه النحاة في التعامل مع المادة النحوية ، كما أنه تفطن إلى أن هناك ظواهر في اللغة العربية تحكمها قوانين جامعة وعلى حد تعبير الطمتور منى إلياس : " أن النحو قبل الحضرمي كان مستغلقا على من تقدمه فهم لا يقعون فيه إلا على ظواهر لا ينفذون منها إلى حقائقه ، ويظهر أن حقيقة الدور الذي اضطلع به ابن إسحاق أنما هو التنبه إلى هذا المبدأ الأساسي من التفكير العلمي وإن كان لم يتوصل إلى كبير شيء في باب تقنين القوانين النحوية " [17] .

---

15 ـ ينظر الزبيدي : طبقات النحويين ، واللغويين ص 32

16 ـ الرازي : مختار الصحاح مادة (مدد) ص 392

17 ـ د.منى إلياس : القياس في النحو ، ص 12 .

بعض الأمثلة عن قياس عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي :

سأكتفي هنا ببعض الأمثلة التي وردت في كتب التراجم والتي اتضحت فيها بعض معالم قياسه :

أ. لقد طعن ابن أبي إسحاق على الفرزدق في مدحه لأمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك

مستقبلين شمال الشام تضربنا بحاصب كنديف القطن منثور

على عمائمنا يلقى وأرحلنا على زواحف تزجي مخها رير

" قالت أسأت إنما: ' مخها رير ' وكذلك قياس النحو في هذا الموضع ، قال يونس والذي قال جائز 'حسن' " [18] .

لقد اعتبر ابن أبي إسحاق جملة " مخها رير " بالرفع على أساس أنها جملة مؤلفة من مبتدأ وخبر وعليه فإن الجر في "رير" خطأ ، ولكن يونس ينظر إلى الجملة نظرة أعمق حين يقرر أن هذه الجملة صحيحة ، ويعلل ذلك بوقوع التقديم والتأخير والترتيب المنطقي للعبارة " رير مخها "

ب ـ وقد طعن ابن أبي إسحاق على الفردزدق أيضا في قوله :

وعينان قال الله كونا فكانتا فعولان بالألباب ما تفعل الخمر

" فقال ابن أبي إسحاق : ما كان عليك لو قلت فعولين فقال الفرزدق : لو شئت أن تسبح لسبحت ... أي لو نصبت لأخبر أن الله

18 ـ د.منى إلياس القيس في النحو ص 12 .

خلقهما وأمرهما أن تفعلا ذلك ، وإنما أراد أنهما تفعلان بالألباب ما تفعل الخمر ، و (كان) هنا تامة غير محتاجة إلى خبر ، فكأنه قال : وعينان قال الله : أحدثا فحدثتا أو أخرجا إلى الوجود فخرجتا "[19].

ج - رأي ابن أبي إسحاق أن الفرزدق أخطأ في قوله :

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى موالياً

في هذا البيت هجاء لابن إسحاق ولكنه لم يلتفت إليه ولم يعبأ به لاحظ الخطأ الوارد في البيت فالقياس عند حذف الياء كقولنا " **مريت بجوار** " وهنا "**مولى موال** " ، وعند بعض العرب تجر نحو " جواري " بالفتحة مثل " مررت بجواري " كما قال الفرزدق [20] ، وروة سيبويهعن يونس بيتا :

قد عجبت منّي ومن يعليا لمّا رأتني خلقا مقلوليا

كما استشهد سيبويه ببيت آخر للكميت :

خريع دودي في ملعب تأزر طورا وتلقي الإزارا [21]

فيونس على هذا الأساس يجوز قول الفرزدق مواليا [22] ما دام وارد في كلام العرب أما ابن أبي إسحاق فقد جرد القياس بدون أن يلتفت إلى الاستعمال والسماع.

---

19 - ابن جني : الخصائص 302/3

20 - ينظر الزبيدي ، طبقات النحويين واللغويين ص 32 ينظر أيضا هامش 32

21 - سيبويه : الكتاب 314/3 ينظر أيضا : ابن عصفور : ضرائر الشعر تحقيق السيد إبراهيم ط2 دار الأندلس بيروت 1982 ، ص 42 .

22 - ينظر ابن يعيش : شرح المفصل عالم الكتب بيروت مكتبة المتنبي القاهرة 64/1

من قياس عيسى بن عمر:

لقد سار عيسى بن عمر على منهج أستاذه ابن أبي إسحاق في الطعن على العرب وتخطئة الشعراء وهذه أمثلة من ذلك :

أ ـ طعنه على النابغة في قوله :

فبت كأني ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السم ناقع[23]

يرى عيسى بن عمر أن النابغة أساء في رفع "ناقع" والصواب عنده " ناقعا " وروى سيبويه هذا البيت في الكتاب شاهدا على إلغاء الظرف إذا تقدم ويكون "السم " مبتدأ و "ناقع " خبر ، يقول سيبويه " ... وذلك قولك : فيه عبد الله قائما وعبد الله فيها قائما ، فعبد الله ارتفع بالابتداء .... وإن شئت ألغيت فيها فقلت : فيها عبد الله قائم ، قال الهذلي :

لا در دري وإن أطعمت نازلكم قرف الحمى وعندي البر مكنوز

كأنك قلت : البر مكنوز عندي وعبد الله قائم فيها " [24]

ب ـ الزانية و الزاني فاجلدوا " [25] :

وقد قرأ عيسى بن عمر " الزانية والزاني " بالنصب وكذا قرأ بن أبي إسحاق وهو خلاف ما قرأ به القراء [26] والنصب هنا على أساس فعل

---

23 ـ الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ص 41.

24 ـ سيوبه : الكتاب 89/1

25 ـ سورة النور الآية 2

26 ـ ينظر الزبيدي طبقات النحويين واللغويين ص 33

مضمر أي اجلدوا الزانية والزاني ، يقول سيبويه معلقا على هذه القراءة " و قرأ أناس " **والسارق والسارقة** " [27] و "الزانية والزاني" وهو في العربيـة على ما ذكـرت لـك من القوة ولكن أبت العامة إلا القراءة بالرفع " [28].

ج ـ ما لا ينصرف من الأفعال إذا سميت ره رجلا :

لم يكن عيسى بن عمر يصف الأسماء التي تأخذ محال الأفعال لكن سيبويه يقرر بأن رأي عيسى خلال قول العرب يقول : سمعناهم يصرفون الرجل يسمى كعبسا وإنما هو فعل من الكعسبة ، وهو العدو الشديد مع تداني الخطأ والعرب تنشد هذا البيت لحسيم بن وثيل اليربوعي :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

ولا تراه على قول عيسى ولكنه على الحكاية " [29]

فكلمة "**جلا**" في هذا البيت غير متصرف عند عيسى بن عمر فهو منقول من الفعل أما سيبويه فيراه جملة محكية أي : أنا ابن الذي يقال له جلا، وعلى هذا يكون "جلا" مفعول به منصوب .

---

27 ـ سورة المائدة الآية 38

28 ـ سيبويه : الكتاب 142/1 .

29 ـ المصدر نفسه 207/3 .

د ـ (هؤلاء بناتي هن أطهر لكم):

قرأها عيسى بن عمر بالنصب واتبع في ذلك قراءة ابن أبي إسحاق الحضرمي وعلق الزبيدي على هذه القراءة بقوله " وهذا مخالف لما قاله النحويون أجمعون ، وبما قرأ به القراء ، وأنكرها أبو عمرو عليه، فقال : كيف تقول هؤلاء بني هم ماذا ؟ فقال عشرين رجلا ، فأنكرها أبو عمرو " [30] .

أبرز خصائص التيار القياسي :

يمكننا أن نستخلص مما سبق الخصائص الآتية :

التجريد الكامل للقياس :

من خلال الأخبار التي وصلتنا وعن الآراء لابن أبي إسحاق الحضرمي وهي قليلة إذ أنه لم يترك أثرا إلا كتابا في الهمز لم يصل إلينا، فإنه يمكننا لمس بعض قياساته النحوية ، وأهمها تجريد القياس فتعرضه لتخطئة ابن سيرين [31] في قراءته للآية الكريمة " **إنما يخشى الله من عباده العلماء**" [32]، وتخطئته للفرزدق في عدة مناسبات يدل على حرصه الكامل على الالتزام بالقاعدة المستقرة من كلام العرب ، إن هذا التشدد له علاقة بظروف بداية الدرس النحوي ، ونرجع فنقول إن

30 ـ الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ص 41

31 ـ ينظر ص 50 – من هذا البحث

32 ـ سورة فاطر الآية 28

من الأولويات التي كان ينشدها هذا التيار الحرص على التقيد الصارم بالقياس لأنه هو الوحيد الذي يجعل القاعدة مطرودة والتي لا يجوز الخروج عنها.

الطعن على العرب وتخطئة الشعراء الجاهلين :

لاحظنا من خلال الأمثلة السابقة أن الهدف المنشود لهذا التيار هو ضرورة الالتزام بالقانون المستنبط من كلام العرب وحتى الشعراء الجاهليون كان عليهم التقيد بسنن العرب في كلامها وكل الخروج على هذه السنن يعتبر لحنا ، ولكن سيبويه أدرك وجه الصواب في قول النابغة " **ناقع** " [33] وهنا ندرك أن التيار القياسي كان يجرد القياس دون أن يحاول إيجاد منافذ لبعض التراكيب .

عدم الاهتمام بالمسموع قد الاهتمام بالقياس :

إن السؤال الجدير بالطرح في هذه الخاصية هو: هل كان لابن إسحاق علم بكلام العرب ؟ يتضح لنا من خلال ما سبق أن ابن أبي إسحاق لم يكن في زمرة الذين رووا عن العرب ، وليس له دراية واسعة بكلامهم مما جعله يتمسك بالقياس ، والدليل على ذلك أنه في تخطئته للفرزدق في " **مولى مواليا** " حكم القياس دون أن يرجع ذلك إلى

33 ـ ينظر ص 70 ـ من هذا الحث

السماع فقد رأينا أن سيبويه استشهد بعدة أبيات على غرار ما ذكر الفرزدق .

التيار المنهجي :

أو عمرو بن العلاء :

قيل عنه: إنه كان أوسع علما بكلام العرب ولغاتها وغريبها من عبد الله بن أبي إسحاق وكان من جلة القراء [34]، إن هذا القول يحمل عدة مفارقات بين أبي إسحاق وأبي عمرو بن العلاء أهمها الفرق المنهجي فإذا كان ابن أبي إسحاق يجرد القياس ويطعن على العرب فإن أبا عمرو كان يلجأ إلى ما قالته العرب ولا يطعن على كلامها وقد امتاز بدقة السماع ، والتعليل الصائب بالرجوع إلى كلام العرب إضافة إلى سعة بديهيته " عن الأصمعي أن سأل الخليل في قول الشاعر :

حتى تحاجزن عن الذود تحاجز الري ولم تكادي

لم تكادي ولم يقل لم تكد ؟ قال طحن يوما أجمع ، ثم سأل أب عمرو بن العلاء فقال : ولم تكادي أيتها الإبل " [35] .

34 ـ ينظر في طبقات النحويين واللغويين ص 35

35 ـ المصدر نفسه ص 38

بعض الأمثلة عن قياس أبي عمرو بن العلاء :

أ. لتخذت عليه أجرا [36] :

عن أبي عبيدة قال سمعت أبا عمرو ابن العلا يقرأ **(لتخذت عليه أجرا)** فسألته فقال : هي لغة فصيحة وأنشد قول الممزق العبدي :

وقد تخذت رجلي إلى جنب غرزها نسيفا كأفحوص القطاةالمطرق"[37]

فقد قاس أبو عمرو قراءته على ما سمع من كلام العرب وعلل ابن الأنباري ذلك قائلا " قرئ : لتخذت بالتخفيف و لاتخذت بالتشديد ، فمن قرأ بالتخفيف جعله من تخذت وأدخل اللام التي هي جواب لو على التاء هي فاء الفعل وقد حكى أهل اللغة تخذت اتخذ " [38].

ويقول بن جني " وذهب أبو إسحاق إلى أن اتخذت كاتقيت واتزنت وأن الهمزة أجريت في ذلك مجرى الواو ، وهذا ضعيف ... والذي يقطع على أبي إسحاق قول الله عز وجل **(قال لو شئت لتخذت عليه أجرا)** فكان أن اتجه ليس من لفظ الوجه كذلك ليس تخذ من لفظ الأخذ "[39].

وهكذا يتبين لنا أن أبا عمرو يقيس على المسموع ولا يكتفي بذلك بل يصحح القراءة بما سمع وبما قالته العرب كما يتضح ذلك في المثال الآتي:

---

36 ـ سورة الكهف الآية 77

37 ـ السيوطي والأشباه والنظائر دار الكتب العلمية بيروت لبنان (د ت) 3 / 113

38 ـ ابن الأنباري : البيان في إعراب القرآن ، الهيئة المصرية العامة للتأليف و النشر 1970 2/114 –

39 ـ ابن جني : الخصائص 287/3 .

ج ـ (عزيز ابن الله)[40] :

" قرأ أو عمرو بن العلا " عزيز" بدون تنوين لأنه جعل " **ابن الله**" صفة لـ " عزيز " والخبر محذوف ، والتقدير" **عزيز ابن الله الهنا** " وهذا معروف عند العرب فهم يحذفون التنوين من الاسم العلم الموصوف " بابن " المضاف إلى العلم لالتقاء الساكنين وهما التنوين وباء " بابن " مع كثرة الاستعمال الداعية إلى التخفيف "[41] .

ولنستمع إلى ابن الباري معلالا بذلك بقوله " ومن قرأ بغير تنوين ففيه ثلاثة أوجه : الأول : أن يكون عزيز مبت«ا ، وابن خبره ، وحذف التنوين لسكونه ويكون الباء من ابن كقراءة من قرأ (أحد الله الصمد) فحذف التنوين لسكونه وسكون اللام .

والثاني : أن يكون جعله قوله : ابن الله صفة لـ عزيز وابن الله إذا كان صفة لعلم مضافا إلى علم حذف التنوين من الأول كقولك زيد بن عمر فعلى هذا يكون عزيز مبتدأ وابن صفة وخبره المبتدأ والمحذوف وتقديره : وقالت اليهود عزير بن الله معبودهم وحذف الخبر للعلم به كما يحذف المبتدأ للعلم به .

والثالث : أن يكون عزيز غير منصرف للعجمة كإبراهيم وإسماعيل وهذا أصف الوجوه "[42]

---

40 ـ سورة التوبة الآية 30

41 ـ ابن عصفور : ضرائر الشعر ص 106 .

42 ـ ابن الأنباري : إعراب القرآن 1 / 396 .

د ـ (من خلف):

كان أبو عمرو يقول " **داري من خلف دارك فرسخان** " حيث جعل خلف مجرور بمن ووصف سيبويه هذا الرأي بالقوة حيث قال " فشبه بقولك دارك مني فرسخان لأن خلف ههنا اسم وجعل من فيها بمنزلتها في الاسم وهذا مذهب قوي "[43] .

يونس بن حبيب :

بما أنني سأتناول قياس يونس بالتفصيل فإنني سأكتفي هنا بمثالين فقط لتكتمل حلقة التيار :

أ ـ عطف النعوت :

روى سيبويه عن يونس أنه قال " مررت بزيد أخيك وصاحبك " فصاحبك معطوفة على زيد يؤيد هذا شاهد من الشعر :

بأعين من مليحات النقب شكل التجار وحلال المكتسب

وهذا وارد في كلام العرب كما أكد ذلك سيبويه بقوله " كذلك سمعناه من العرب "[44].

ب ـ (إذا دعي الله وحده كفرتم):

يرى يونس في "وحده" من قوله تعالى " **ذلكم إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا** "[45] أن ينتصب على الظرف تقديره " **دعي**

43 ـ سيبويه : الكتاب 417/1

44 ـ المصدر نفسه 67/2

45 ـ سورة المؤمنون الآية 12 .

على حياله وحده " وهو مصدر محذوف الزيادة والفعل من أوحدته إيحاد [46].

أبرز خصائص التيار المنهجي :

يمكننا أن نستنتج من خلال ما سبق بعض السمات الأساسية لهذا التيار وألخصها في ثلاث نقاط .

عدم الطعن على العرب :

لقد قيل عن أبي عمرو بن العلاء أنه أوسع بكلام العرب [47] إذ يعتبر من الرواة الموثوق بهم ومن جلة القراء ، وكان تلميذه يونس بن حبيب أيضا واسع الدارية بكلام العرب وأيامها وأخبراها ، هذه المعطيات كلها جعلت أصحاب هذا التيار يسلكون مسلكا يعتمدون فيه على احترام النص المسموع، ويرتكزون على معرفة اللغة العربية وخصائصها وأسرارها، وربط الأشعار بمناسبتها ومعرفة أحوال أصحابها مما جعلهم يسلمون للعرب ولا يطعنون عليها ، فإذا ورد تركيب مخالف للقياس يحاولون النظر في إمكانية تحويله لمعرفة أسبابه كما كان الحال بالنسبة لموقف يونس من تدخل ابن أبي إسحاق في تخطئة للفرزدق في الجملة : " **مخها رير** " [48]

---

46 ـ العكبري : التبيان في إعراب القرآن 116/2

47 ـ ينظر : ابن سلام : طبقات الشعراء 14/1 .

48 ـ ينظر ص -68- من هذا البحث .

الاعتماد على الشواهد :

يضاف إلى ما سبق اعتماد أصحاب هذا التيار على الشواهد من كلام العرب ولو بشاهد واحد ما دام قد تثبت في اللسان العربي ، غير أن أبا عمرو بن العلاء كان أكثر تحفظا في استعمال الشواهد فقد كان يقيس على الأكثر ويسمى ما خالفت لغات [49]، أما يونس فقد اعتمد على الوارد من الشواهد متى تبث في كلام العرب .

الاعتماد على طبيعة اللغة :

ذلك باستقراء كلام العرب وعدم القول بلغة رديئة فكل لغات العرب حجة ثم محاولة التفسير التراكيب النحوية ، دون اللجوء إلى تجريد القياس أو اصطناعية بحيث يؤثر سلبا على النتائج المرجوة من ذلك .

التيار الخليلي :

يضم هذا التيار خليل بن أحمد وتلميذه سيبويه ، أما تسميته بالتيار الخليل فنسبة إلى الخليل بن أحمد الذي عرف بالفطنة والذكاء الخارق والبديهة الصائبة كما يعتبر المثبت الأساسي لنظرية العوامل في النحو العربي، وقد سبقت الإشارة إلى هذه النظرية وعلاقتها بالقياس النحوي[50].

---

49 ـ ينظر الزبيدي ، طبقات النحويين واللغويين ص 39

50 ـ ينظر ص ـ55ـ من هذا البحث

من قياس الخليل :

(يا جبال أوبي معه والطير) :

كان عيسى بن عمرو وأبو عمر بن العلاء يقرآن " **الطيرَ** " بالنصب ولكن يختلفان في التأويل فعيسى يرى أنه على النداء كما تقول "يازيد" و "**يا الحارث**" وقال أبو عمرو: لو كان على النداء لكان رفعا، ولكنهما على إضمار: "**وسخرنا الطير**" لقوله على إثر هذا: "**ولسليمان الريح**"[51] أي " **وسخرنا الريح**"[52] .

أما الخليل فيرى بأن القياس المعطوف في هذه الحالة الرفع، قال سيبويه: "فأما العلرب فأكثر ما رأيناهم يقولون: يا زيدُ والنضرُ وقرأ الأعرج "**يا جبالُ أوبي معه والطيرُ**" فرفع، ويقولون: يا عمرُو والحارثُ، مقال الخليل رحمه الله هو القياس كأنه قال: ويا حارثُ" [53] .

ب ـ أيهن:

قال سيبويه: "سألت الخليل رحمه الله عن قولهم: أيهن فلانة وأيتهن فلانة، فقال: إذا قلت أيٌّ فهو بمنزلة كل لأن كلا مذكر يقع على للمذكر والمؤنث وهو أيضا بمنزلة بعض"[54] ، فقد قاس الخليل أي على كل وبعض.

---

51 ـ سورة سبأ الآية 12

52 ـ ينظر الزبيدي ، طبقات النحويين واللغويين ص 41

53 ـ سيبويه الكتاب 187/2

54 ـ المصدر نفسه 407/2

خاتمة:

يتبين لنا من خلال ما سبق أن التيارات النحوية كانت بمثابة القاعدة التي تأسس عليها الدرس النحوي العربي، أما مسألة الخلاف المدرسي فقد وجد بذوره في المدرسة البصرية التي كانت قد أسست الأصول الأولى للنحو العربي.

مظاهر التعليل النحوي عند ابن السيد وأبعادها التعليمية من خلال كتابه إصلاح الخلل

د . محمد زهار

أستاذ بقسم اللغة العربية وآدابها

جامعة محمد بوضياف ـ المسيلة ـ

ملخص المقال:

تتناول هذه الدراسة أصلا من أصول النحو العربي عند واحد من النحاة العرب في بلاد الأندلس في القرنيين الخامس والسادس الهجريين وهو ابن السيد البطليوسي النحوي الذي عرف بكثرة نقده لنحو المشرق على غرار غيره من النحويين ولقد ظهرت فلسفته من خلال تعليقاته المتنوعة على كتاب أبي القاسم ومناقشته أصول النحو المتعددة في مقدمتها العلة والتعليل ودورهما في تقعيد القواعد، وتأصيل الظواهر. و أهميتها في حقل التعليميات اللسانية.

مقدمة:

جاءت هذه الدراسة المتواضعة لتبرز الجهد العلمي المتميز لشخصه، واهتمامه بظاهرة التعليل لما لها من أهمية بالغة في تعليم

النحو ترسيخه المتعلمين بحكم منهجيته العلمية حيث قسمها إلى علل قياسية وأخرى تعليمية وهي العلل الغالبة في كتابه وقد توصلت الدراسات العلمية واللسانية الحديثة أن العملية التعليمية بحاجة ماسة إلى العلة و التعليل في تقعيد القواعد وتأصيل النصوص النحوية. قبل أن نبحث عن الأصول النحوية عند ابن السيد لا بد من الإشارة إلى أن اللغة جزء لا يتجزأ من المعرفة الإنسانية، ويعد علم النحو القاعدة والأساس إذ به يتم البناء الشامل للغة، ويسعى إلى بيان الأهمية البالغة للقواعد التركيبية من سلامة ووجاهة وما تتطلبه عملية التعليق ومسالك نظم الكلام، وكان الأوائل يلحّون على الاهتمام بفكرة العوامل التي تفسر تلك الظواهر اللغوية، فسعوا إلى تأصيلها وبيان أصولها فجاءت بحوثهم المتنوعة تنظر لمنهج العلة التي تمثل النواة مساهمة في تفسير مختلف الظواهر العلمية يتخللها الخلاف القائم حول علاقة أصول النحو بالفلسفة، والمنطق الأرسطي، يقول لشتانستاد فيما كتب تحت كلمة (نحو) في دائرة المعارف الإسلامية:

"إن الأصول النحوية التي اعتمدها اللغويون العرب مأخوذة من المنطق الأرسطو طاليسي الذي وصل إلى العرب بواسطة العلماء السريان [1]. يقول عبد الجليل مرتاض :

1 ـ فؤاد البستاني، دائرة المعارف الاسلامية، ط I، مطبعة بيروت، لبنان، 1960 ، 894/1. و ينظر: الحاج صالح عبد الرحمان ، النحو العربي ومنطق أرسطو مجلة كلية الآداب، عدد I ، الجزائر، 1964 ، ص69. و أحمد أمين، ضحى الإسلام، طبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1952 ، 292/2 ،و إبراهيم بيومي، منطق أرسطو و النحو العربي، عدد 20 ، مجلة مجمع اللغة العربية، 1953 ، ص338.

" ...إذا كانت الحركات الإعرابية دوالا على معانيها في اللغة العربية، فإن هناك لغات لا علاقة لحركاتها الإعرابية بدلالة معانيها، وأما وجوه الإعراب على مذهب الفلاسفة اليونانيين فالرفع عند أصحاب المنطق من اليونانيين واو ناقصة ،وكذلك الضم وأخواته المذكورة والكسر وأخواته عندهم ياء ناقصة والفتح وأخواته عندهم ألف ناقصة،فليقارن المقارن بين هذه المصطلحات النحوية الإعرابية لدى العرب واليونان فهل عساه أن يجد مصطلحات الخليل بن أحمد تشبه مصطلحات اليونان.[2]

والواقع أنَ العرب لم يعرفوا هذه المصطلحات النحوية إلا بعد القرن الثاني والثالث الهجريين خلافا لما يدعيه كثير من الباحثين، ووقوعهم في بعض التجاوزات غير العلمية كمهاجمتهم مناهج البحث عند القدماء بتهمة اخضاع اللغة للمنطق الأرسطي، أوما قرره مثلا مهدي المخزومي في أن تأثير علم الكلام إنما ظهر في النحو في زمن مبكر أي منذ القرن الثاني. والذي لاشك فيه أن الحد، والقياس في النحو غير الحد والقياس في المنطق ،وأن التعليل النحوي غير التعليل الفلسفي ضف إلى ذلك أنه ليست هناك قرائن تاريخية تؤكد فكرة التأثر؛ لأن

2 ـ عبد الجليل مرتاض، بوادر الحركة اللسانية، ط1 ، مؤسسة الأشرف، لبنان، 1988 ، ص123. وينظر: سليمان بن علي، علاقة النحو بالمنطق، مجلة الآداب واللغات، عدد2 ، الأغواط، 2004 ، ص56ـ68.و قد بيّن صاحب المقاباسات المناسبة بين المنطق والنحو فقال:" النحو نظر في كلام العرب يعود بتحصيل ما تألفه وما تعتاده أو تفرقه وتعلل منه أو تفرقه وتخيّله أو تأباه وتذهب عنه و تستغني بغيره. . حسن السندوسي " أبو حيان التوحيدي مقابساتت،ط1 ، المكتبة التجارية،القاهرة،1979 ، ص61 ـ62.

العرب الأوائل رفضوا المنطق الأرسطي وخالفوه إلا أن تأثير علم الكلام إنما ظهر في النحو في زمن مبكر أي منذ القرن الثاني الهجري[3].

أما الفقه فقد تأثر به الدرس اللغوي تأثرا واضحا فرُوِي عن أبي عمرو الجرمي[4] أنه كان يفتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه. ونظراً لأهمية الدراسات الفلسفية في تفسير الكثير من المقولات النحوية فقد تشبع النحاة في بداية حياتهم العلمية بالبحوث الفلسفية حيث اغترفوا في عهد مبكر الأسس العامة لهذا العلم ، والقارىء للكتاب يلمس شدة تأثره بالفلسفة أيضا في مواضع كثيرة نذكر منها حده لمعنى "الآن" وهو حد الزمانين الماضي والمستقبل أوكما قال [5] .

وعلى الرغم من الظروف السياسية القاسية التي عاشتها بلاد الأندلس في القرنين الرابع والخامس الهجريين، فإن اهتمام الأندلسيين بعلوم العربية من نحو، وبلاغة، وقراءآت كان الميزة الغالبة في حياتهم

---

3 ـ مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، مهدي المخزومي، ط1, بغداد، 1955 ، ص40.و اللغة بين المعيارية والوصفية ط4 ، عالم الكتب، القاهرة،2000.ص44.ـ50.

4 ـ هو صالح بن اسحاق، أبو عمر الجرمي النحوي والفقيه واللغوي، أخذ اللغة عن أبي زيد الأنصاري والأصمعي.كان ورعا صحيح الاعتقاد، من أهل البصرة،سكن بغداد كان مع أبي عثمان المازني سببا في إظهار كتاب سيبويه.من أشهر ما ألف الجرمي: الأبنية والتصريف، وتفسير أبيات سيبويه. إنباه الرواة،2/80 ـ83. و الفارابي،الحروف،ت.محمود حسني و محمد حسن عواد ،ط1, مطبعة دار قتيبة، بيروت، لبنان،1991.ص274.

5 ـ إصلاح الخلل، ص12.

خاصة بعد رحيلهم إلى بلاد المشرق والجلوس إلى حلقات العلم بالبصرة والكوفة وبغداد. كما كان كتاب سيبويه، وجمل الزجاجي وإيضاح الفارسي من أهم المصنفات التي جلبوها إلى الأندلس، ومرد ذلك كله يعود إلى إحساس أهل الأندلس بالضعف، والتخلف عن أهل المشرق. يقول محمد الصادق عفيفي:

"...كان الأندلسيون يحسون بنوع من التخلف عن المشارقة، ويحاولون دائما أن يعوضوا ذلك بتأكيد تفوقهم رغم بعدهم، وسبقهم، ورغم عربيتهم. من هنا نراهم يتعصبون للغة حيث يُفتنون بعلم النحو ويقتلونه درسا وتأليفا "[6]. وقد تفرد جيل منهم اهتم بدراسة علم النحو والتأليف فيه أذكرمنهم الأعلم الشنتمري 476 هـ وابن السيد البطليوسي 521هـ وأبو الحسين ابن الطراوة 528هـ وأبو الحسن ابن الباذش 528هـ وغيرهم ممن أضاءوا حياة الأندلس العلمية التي لا تزال حقلا خصبا للباحثين و المتخصصين في إحياء تراث أهل المنطقة.

جاءت هذه الدراسة محاولة البحث في عَلَم من أعلامها، معتمدا على كتابه "إصلاح الخلل الواقع في كتاب الجمل" هذا المؤلف الذي جسد فيه نضج علوم العربية، و سجل قوة تحصيله التراث العربي. ولا غرابة في ذلك لأنه الطابع الذي ميّز هذه الفترة من الحياة

---

6 ـ محمد الصادق عفيفي، الأدب المغربي، مكتبة المدرسة،ط2 دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1969 ، ص60. وينظر، محمد زكرياء عناني، في الأدب الأندلسي، فصل الإحساس بالنقص بإزاء المشرق،ط1،دارالمعرفة الجامعية،الإسكندرية، 2003 ص40 ومابعدها.

الاجتماعية والثقافية بالأندلس، ويؤكد محمد عيد هذه الخاصية في بلاد الأندلس بقوله:

" أما في القرن الرابع الهجري فقد اتخذت دراسة النحو واللغة طابعا علميا جادًا تحوّل التعليم إلى علم واستبدل النقل بالتأليف وظهر التخصص في دراسة اللغة والنحو بدل الجمع من كل فن بطرف[7] .

وأنا أتحدث عن الحياة العلمية لأهل الأندلس، أسجل انكبابهم الجاد على دراسة وتحليل المصنّفات النحوية والتعليق عليها، والاجتهاد الفعال على إعمال الفكر،ومناقشة الآراء النحوية لأعلام المشرق، فنصادف كتاب النكت للأعلم الشنتمري 476 هـ. مع الإشارة إلى جهود أبي الحسن ابن الباذش الغرناطي 528 هـ لا أنسى جهود سليمان بن محمد بن الطّراوة تلميذ الأعلم الشنتمري 528 هـ الذي وضع كتابا أسماه المقدمات على كتاب سيبويه[8].

هكذا نشطت في تلك الفترة حركة التأليف في مختلف المدن الأندلسية، واستطاع ابن السيد البطليوسي 521 هـ أن يجعل من بطليوس، وقرطبة، واشبيلية، والأمصار التي نزل بها قِبلة، ومعقلا لطلاب العلم في عصر كثرت فيه الفتن، والحروب، والخلافات السياسية التي شهدتها بلاد الأندلس[9].

7ـ محمد عيد، أصول النحو العربي، ط1, عالم الكتب، القاهرة، 1989 ، ص33

8 ـ شوقي ضيف، المدارس النحوية ، ط5 ، دار المعارف القاهرة، 1983 ، ص294.

9 ـ السابق ص296.

اسمه ونسبه:

أجمعت كتب اللغة، والتراجم على أن اسمه: عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي المكنّى بأبي محمد. لقب بابن السِيد: بكسر السين، وتسكين الياء. والسيد في اللغة من أسماء الذئب. وعُرِف بالبطليوسي بفتح الباء، والطاء، وسكون اللام، وفتح الياء نسبة إلى بَطَلْيَوس وهي مدينة كبيرة تقع غرب قرطبة.[10]

وإلى مدينة بطليوس يُنسب محمد بن عبد الله النحوي صاحب التصانيف المتوفى عام 521 هـ [11] .

---

10 ـ حامد كمال محي الدين، ابن السيد البطليوسي، نقاد الأدب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2 2001 ، ص17.

11 ـ عن حياة ابن السيد ينظر:

1 ـ الفتح بن خاقان، قلائد العقيان، ت. محمد العناني، ط2، المكتبة العتيقة، القاهرة،دت، ص193.

2 ـ ابن خير الأشبيلي، الفهرسة، ت.فرنسيشكة، سرقسطة، إسبانيا، 1893، ص258.

3 ـ بن بشكوال، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، ت. عزت الحسيني، ط1 ، مكتبة نشر الثقافة الاسلامية، القاهرة 1955، 292/1.

4ـ ياقوت الحموي، معجم الأدباء، سلسلة الموسوعات العربية، مطبعة دار المأمون، القاهرة، د ت، 409/5.

5ـ القفطي، إنباه الرواة على أنباء النحاة، ت. محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1950 141/2.

6ـ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ت. محمد محي الدين عبد الحميد، ط1، مطبعة السعادة القاهرة، 1947، 282/2.

7ـ المقّري، أزهار الرياض في أخبار عياض، ت. مصطفى السقا، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1942 101/3.

8ـ ابن كثير، البداية والنهاية،ط6،مكتبة المعارف،بيروت،لبنان،1985 19/12.

9ـ السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ت. أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، 1964 56-55/2.

10ـ حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، طبعة إستانبول، 1941، 48/1ـ 75.

11ـ كارل بروكلمان،تاريخ الأدب، ت. عبد الحليم النجار، ط2، دار المعارف، القاهرة، دت،1/88.

13ـ شوقي ضيف ،المدارس النحوية،ص 294.وعمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ط1، مطبعة الترقي، دمشق، 1957، 121/6.

14ـ الزركلي، الأعلام،ط15،دار العلم للملايين،2002 268/4.

ومهما يكن فإن البطليوسي قضى فترة طويلة في بطليوس جالس علماءها، وأخذ العلم عنهم ثم انتقل إلى قرطبة فأخذ عن أبي علي الغَسّاني علوم الحديث، ورحل إلى مدينة طليطلة وبعدها إلى سرقسطة ومنها إلى بلنسيّة حيث استقر به المقام وتفرّغ للتأليف والتدريس حتى وافته المنية في منتصف رجب عام 521 هـ. يقول شوقي ضيف: كان يقرىء الطلاب في قرطبة، ثم بلنسيّة النحو.[12]

وعلى الرغم من طبيعة الحياة الاجتماعية والسياسية المتدهورة إلا أن المؤرخين سجلوا نشاط الحركة العلمية، وازدهارها بفضل تشجيع ملوك الطوائف الذين قربّوا العلماء وأجزلوا لهم العطاء ولكن سرعان ما انقلب الأمراء على الكثير منهم بالبطش والتنكيل، في هذه الظروف طاف ابن السيد بلاد الأندلس فأتقن علوم العربية وآدابها ودرس القراءات، وعلوم الحديث والفقه. يقول عنه السيوطي: "... كان عالما باللغات والآداب، متبحرا فيها انتصب لإقراء علوم النحو، يجتمع إليه الناس وله يَدٌ في العلوم القديمة"[13] . ويقول عنه تلميذه الفتح: "هو شيخُ المعارف، وإمامها لديه تُنشدُ ضوال الإغْرَاب وتوجدُ شواردُ اللغة والأدب"[14]. وقد وصفه المقري بأنه أزخر علماء الأندلس بحرا،

12ـ المدارس النحوية ،ص.294.

13ـ السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ت. أبوالفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1964 2/55-56

14ـ قلائد العقيان، ص.193 ـ حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ط1 ، دار مطابع المستقبل، القاهرة، 1973، ص189. وأيضا شيوخ العصر في الأندلس، ط1, الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1986, ص91.و محمد طاهر مكّي، الأدب الأندلسي من منظوز إسباني، ط1,مكتبة الآداب، القاهرة،1990. و أحمد هيكل، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط غرناطة، ط3, دار المعارف،القاهرة، 1967, ص41.ومريا خسيوس روبير، الأدب الأندلسي، ت. أشرف علي دعرور،ط1,المجلس الأعلىللثقافة ، القاهرة،1999,ص121. و ألبير مطلق، الحركة اللغوية في الأندلس من الفتح حتى عصر الملوك والطوائف، ط1, المكتبة العصرية صيدا، 1967 ص122. و حسين يوسف ديودار، المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، ط1, مطبعة الحسين، القاهرة، 1994, ص9.

وأوسعهم نحرا وأحسنهم خواطر، وأسكنهم مواطر، وأسيرهم أمثالا، وأصدقهم لسانا، وأعمهم إحسانا، وأرفعم راية وأبعدهم غاية[15].

ومن أشهر ما ترك البطليوسي في الفقه: "الإنصاف في التنبيه على الأسباب الموجبة لاختلاف الأمة" كما وضع في رواية الحديث والفقه كتابا أسماه: "شرح على موطأ مالك". وكتاب" علل الحديث" وأشير إلى أنه كان يتقن اللغات السامية، وهذا ليس جديدا على المجتمع الأندلسي بحكم اطلاعهم الواسع على كتب الديانات . وفي إصلاح الخلل بعض الإشارات اللغوية يلمسها القارئ في باب الأفعال مناقشا النحاة في أن فعل الحال ليست له صيغة فقال:

"... وفعل الحال ليست له صيغة يختص بها في اللسان العربي. وهذا لا حجة لهم فيه لوجهين أحدهما: أن له صيغة في غير اللسان العربي،والثاني: أن في لغة العرب أشياء كثيرة لم يوضع لها صيغ تختص بها ولا يبطل أن تكون موجودة، لأن وجود الشيء ليس بوجود اسمه، إنما وجوده أن يكون حقا ثابتا في ذاته .ثم مثل بالنصب في التثنية والجمع السالم قد أشرك مع الخفض ولم يوضع له لفظ ينفرد به ولم يكن في ذلك دليل على أنه ليس بموجود" [16].

15 ـ أزهار الرياض 101/3

16ـ إصلاح الخلل،ص64

هكذا تبلورت شخصية ابن السيد وتحددت ملامح نبوغه العلمي والأدبي وأصبح عَلَمًا من أعلام عصره يرتحل إليه طلاب العلم، ويلتفون بحلقاته،حتى بلغ عدد التلاميذ ما يفوق الخمسين تلميذا.

المدونة العلمية:

إن القارىء للتراث العربي في المشرق تستوقفه مدونتان علميتان تتعلق بظاهرة التعليل النحوي واللغوي أولاهما لسيبويه 180هـ والثانية للزجاجي377 هـ وكتابه الإيضاح في علل النحو،ولا ينكر المؤرخون الدور الذي قدمه سيبويه وبعده الزجاجي للغة الضاد، أما في بلاد الأندلس فنجد كتاب النكت للأعلم الشنتمري و في إصلاح الخلل لابن السيد الذي صوّب فيه الكثير من الأغاليط وأعطى آراء علمية ثابتة دالة بصدق على قدرته، وكفاءته ،وتضلعه المتميز.و "إصلاح الخلل" نموذج استجلى فيه قدراته وخصائصه المعرفية كيف لا ؟ والرجل ألّف " المثلث " وعمره لا يتعدى السابعة والعشرين لكنه ضاع فأعاد تأليفه وتشهد كتب التراجم جملة من الآثار العلمية الكثيرة التى تركها ابن السيد أذكر منها:.

الكتاب الذي اخترته للدراسة والموسوم بـ :"إصلاح الخلل الواقع في كتاب الجمل" مستهلا الحديث عن الزجاجي وكتابه الجمل الذي خُصّت به الدراسات النحوية وبينت قيمته العلمية ،فمنها ما جاء تصديراً لما نُشِر في مؤلفاته، كالإيضاح، والجمل يقول محققه:"...مَنْ ينظر في

الكتاب يجد نفسه أمام عالم متمكن، يُحسن عَرْضَ موضوعاتِه وتناولهَا بأسلوب سهل، واضح خال من التعقيد ،وجفاف الحدود، والقواعد يكثر من الشواهد القرآنية الكريمة، والشواهد الشعرية، والأمثلة ليصل بمناقشتها إلى تقرير قواعد موضوعاته مع براعة في التحليل والتعليل .يقول القفطي مبينا مكانة الجمل :"هو كتاب المصريين وأهل المغرب، وأهل الحجاز، واليمن،و الشام" [17].

إن كتاب الجمل ينحو منحى الاختصار في جمعه القواعد النحوية، والصرفية؛ إذ يعطي القاعدة العامة في جُمَلٍ بسيطة لا تحتاج إلى تأويل ،مفضلا أسلوبا سهلا بعيدا عن تفريعات النحاة ،وتخريجاتهم وتأويلاتهم، فالمغاربة أغرتْهُم تلك النزعات التي سلكها الزجاجي بمنهجيته التعليمية فذاع بينهم وألفوا له، ولشواهده الشروح الكثيرة[18]. أما منهج الزجاجي فقد وُضِع خصيصًا للمتعلمين المبتدئين الذين تنفعهم القاعدة الضابطة المجملة والأمثلة الموضحة المُشَابِهة للنماذج التطبيقية التي يقوم بها المعلمون المعنيون بالتدريس. فمن صور التيسير، والتبسيط أنه عقد أبوابا خاصة بالرسم،وأخرى خاصة باللغة منها مثلا "بابُ ما يُؤَنَثُ مِنْ جسم الإنسان"، و" ما يُذَّكرُ و يؤَنَث

17 ـ إنباه الرواة على أنباء النحاة، 141/2

18 ـ هنري كربان، تاريخ الفلسفة الإسلامية منذ الينابيع حتى وفاة ابن رشد، ت. نصير مروة، ط1، منشورات عويدات، بيروت 1966، ص349.

مِنْ أعضاء الحيوان"و" باب ما يُذَّكَر ولا يجوز تَأْنِيثه"، و"باب ما يُذَّكر ويُؤَنَّث من غير ما ذكرناه"[19].

إن هذه المباحث على أهميتها ليست شديدةَ الصلة بأبواب النحو إلا أنها تسد حاجة المتعلمين والمبتدئين. قال السيوطي:"... وعِلمُ الخطِّ ويقال له علم الهجاء، ليس من علم النحو وإنما ذكره النحويون في كتبهم لضرورة ما يحتاج إليه المبتدئ في لفْظِهِ وتركيبه [20] .

أما عن الأصول النحوية التي اعتمدها البطليوسي فيمكن القول إنه سار على طريقة سيبويه في تعليلاته للمسائل المتعددة فظهرت آراؤه واضحة من غير تعقيد ولا اضطراب ولا تكاد تقرأ مسألة نحوية إلا والتعليل يتقدم الأصول النحوية وكان واضحا في توظيفه مصطلح العلة حيث اعتبرها الأساس الذي تقوم عليه مسائل اللغة في الكثير الغالب يقول مثلا في (نون) "يضربان و"يضربون" أنها بدلا من حركة و"ضاربون" بدلا من حركة و تنوين لأن المصدر اسم والاسم تلحقه الحركة والتنوين. قال:"فإن قال قائل فما العلة المانعة من تثنية الفعل وجمعه؟ .فالجواب أن التثنية والجمع إنما يراد بهما التكثير والإشعار بأن الشيء قد تجاوز حد الإفراد .ألا ترى أنك إذا قلت:"زيد"فإنما يدل على شخص واحد فإذا أردت أكثر من شخص

19ـ الجمل ،ص75-83-120-152.

20 ـ إنباه الرواة على أنباء النحاة، 141/2

احتجت إلى أن تقول: "زيدان" و"زيدون". و الفعل لا يحتاج فيه إلى ذلك لأن لفظ الفعل يعبر به عما قل منه وماكثر[21].

وكذا في باب عدم جواز العطف "بـ لا"، ومن خصائص أسلوب ابن السيد ومميزاته أنه شديد الولوع باستعمال العقل في الكثير من المسائل النحوية المراد مناقشتها لسد مواطن الخلل فيها، ولا يزال كذلك حتى يستمد منها العلة المناسبة التي يقدمها بطريقة علمية مفهومة يحس القارىء بموضوعية الطرح وعلمية الحوار متخللا ذلك عناصر التشويق التي تلزم المطلع على انهاء المسألة المرادة ومناقشتها. قال مؤيدا الزجاجي في باب النواسخ وفي تسمية "كان وأخواتها" حروفا: إن تسمية أبي القاسم لهذه العوامل حروفا ليس ببعيد في القياس و النظر لعلتين:

أولا: أن الفعل الصحيح إنما وضع في أصله وضعه ليدل على حدث واقع في زمان محصل وهو خبره الذي يستفيده المخاطب، وهو مضمن فيه غير خارج عنه وأحداث هذه الأفعال غير مضمنة فيها ألا ترى إذا قلت: "قام زيدٌ" أو "كان زيدٌ قائماً". فإنما تخبر عن زيد بالقيام في كلتا المسألتين غير أن القيام مضمن في قام غيرها خارج فيه ، والقيام خارج عن كان غير مضمن فيها فلما كان الحدث الذي هو خبرها خارجا عنها أشبهت الحروف الذي معناه في غيره، ولهذه العلة أجمع

21 ـ إصلاح الخلل، ص 135

النحويون على أنها داخلة على مبتدأ وخبر لأن الخبر الذي يستفيده المخاطب بعدمها هو الذي يستفيده بوجودها لم تزد فيه "كان" أكثر من أنها جعلته في الماضي و"كان" قبل دخولها ممكنا أن يكون في غيره فصار قولك: "كان زيدٌ قائماً" بمنزلة "زيدٌ قائمٌ" فيما مضى فأفادت ما يفيده الظرف، لهذه العلة قالوا: إن "قائما" خبر "كان" والأفعال لا يخبر عنها ، وإنما هو خبر عن اسمها ـ إذا قلت : "زيدٌ قائمٌ" احتملت الجملة معاني كثيرةً فتدخل عليها هذه العوامل ليحصل كل واحد منها على معنى من تلك المعاني .فإذا قلت: "كان زيدٌ قائمًا"، و "أصبح زيدٌ قائمًا"، و"أمسى زيدٌ قائمًا". وإذا قلت "صار" و"ظل" أفادت معاني متعددة فإذا قلت :"كان زيدٌ قائمًا" أفادت أنه كان فيما مضى وإذا قلت أصبح أفادت أنه وقع في الصباح وإذا قلت:صار أفادت الانتقال من حال إلى حال. وإذا قلت ما زال أفادت اتصال الفعل ودوامه فلما كان كل عامل منها يحصل معنى من تلك المعاني المبهمة التي تحتملها قبل دخول هذه الأفعال أشبهت حروف المعاني التي تفيد المعاني المختلفة في الجملة الواحدة"[22].

إن الذي يدقق النظر في منهجه يلحظ عمقا في التحليل واستعراضا لقدراته العلمية وجدية في طرح أهم المواقف التي ينفرد بها النحاة مستعينا كعادته بالأدلة ،و البراهين القاطعة بحيث تؤدي القصد وتحقق

22 ـ السابق، ص125

الغاية، منها مثلا مسألة دخول الباء في خبر "ما". يرى الزجاجي أن"ما" هذه لا تكون إلا حجازية ولا يجوز أن تكون تميمية دون تقديم التوضيحات اللازمة بينما استرسل ابن السيد العلة التي قدمها هؤلاء بقوله:"ولقد عللوا لذلك بأن "ما" دخولها في الكلام كخروجها لأنها لا تعمل شيئا فكما لا يجوز قبل دخولها أن تقول: "زيدٌ بقائمٍ". فكذلك لا يجوز "ما زيدٌ بقائمٍ" وعقب المفسر على ذلك بقوله:

"...نحن نقول لهؤلاء القوم لا خلاف بيننا وبينكم في أنه يجوز أن يقال "ما زيدٌ إلا قائمٌ". كما قال تعالى " ما هذَا إلا بشرٌ ".ونحن لوقلنا: "زيدٌ إلا قائمٌ" دون ذكر "ما". لم يجز. فكما أن دخول "ما" على الجملة جوز دخول "إلا" وذلك لا يجوز قبل دخولها فكذلك يجوز دخول "الباء"معها. وإن كان لا يجوز قبل دخولها. وهذا ما لا جواب لهم عنه[23].

صور العلة ومنهجه في التعليل:

الناظر في أصل العلة التي وردت عند ابن السيد يلحظ أنها قد غطت مستويات الدرس اللغوي ونعني به الأصوات، والصرف، والنحو، والدلالة، من هنا تأكد أن العلة عنصر هام في عملية الاستدلال والتفسير ووسيلة من أهم الوسائل في دراسة الظواهر اللغوية، ومع

23ـ السابق، ص35.

اختلاف المسائل وتباينها تعددت العلـل واختلفت أنواعها واتخذت صورا عنـده نوجزها في النقاط التالية:

أولا- ينسب ابن السيد في الكثير الغالب العـلة لسيبويه وأصحابه. يقول معقبا على الزجاجي الذي يرى أنه لا يجازي بـما إلا مع إذا .قال:

أما سيبويه وأصحابه فلا يرون المجازاة بها أي (إذا) لا مـع "ما" ولا دونها والعلة في ذلك عندهم أن الشرط ممكن أن يكون وممكن ألا يكون و"إذا "وقتـها كائن لا محالة وإنما يجازي بها عندهم في الشعر لمشاركتها حروف الشرط في أنها محتاجة إلى جواب كاحتياج الشرط الصحيح والشيئان إذا تضارعا من بعض الجهات يحمل بعضها على بعض.[24] واحتج بقول أوس بن جحر:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَنْزَعْ عَنِ الجَهْلِ وَالخَنَا أَصَبْتَ حَلِيمًا أَوْ أَصَابَكَ جَاهِلُ

لأن النزوع عن الجهل والخنا ممكن أن يكون وممكن ألا يكون، فليس هذا من مواضع "إذا " إنما هو من مواضع "إن" فلذلك استجيز الجزاء بها. وفي قول الأغلب العجلي:

جَـــارِيَةٌ مِـن قَيْسِ بنِ ثَعْلَبَهْ كَأَنَّـهَا حِـلْيَةُ سَـيْـفٍ مُذَهَـبَـهْ

قال ابن السيد في هذا الباب: "... والعلة في حذف التنوين عند سيبويه كثرة الاستعمال مع التقاء الساكنين وكون الصفة والموصوف

24 ـ السابق، ص145

كالشيء الواحد. و"كان يونس يرى أن العلة فيه إجماع الساكنين.وقال عمرو بن العلاء العلة فيه كثرة الاستعمال [25].

ثانيا ـ لا يذكر كما لا يعيّن النحوي صاحب العلة بل تارة ينسبها للنحاة على اختلاف مذاهبهم فمرة يقول إنها ليونس بن حبيب. وتارة أخرى ينسبها إلى أبي جعفر النحاس،أو السيرافي، وتارة يعمم العلة دون تحديد.وهي طريقة قصدها الغاية منها، إعمال العقل واستحضار المحفوظ الأدبي، والمقولات النحوية مع ما في ذلك من تشويق الباحث لمعرفة المذاهب والمذاهب النحوية على اختلافها. يقول مثلا في معاملة "كان وأخواتها" معاملة الأفعال .قال ولهذه العلة قال النحويون:

إنها داخلة على مبتدأ وخبر لأن الخبر الذي يستفيده المخاطب بعدمها هو الذي يستفيده بوجودها لم ترد فيه "كان" أكثر من أنها جعلته في الماضي و"كان" قبل دخولها ممكنا أن يكون في غيره فصار قولك :"كان زيدٌ قائمًا "يميزه قولك "زيدٌ قائم " فيما مضى فأفادت ما يفيده الظرف ولهذه العلة قالوا أن "قائمًا "خبر "كان" والأفعال لا يخبر عنها باتفاق وإنما هو خبر على اسمها لا عنها.[26]

25 ـ السابق، ص139

26 ـ السابق ص147

ثالثا- لا يصرح ابن السيد في الغالب بالعلة بل يكتفي بقوله والحجة في ذلك واحتج النحاة ،واحتج الفراء وأصحابه على جواز ذلك قال مثلا موضحا دخول اللام في خبر "الكن "محتجا بقول حميد بن يحي:

يَلُومونَنِي في حُبِّ لَيْلى عَوَاذِلي ولكنَّني من حُبِّها لكَمِيدُ[27]

...وهو جواز دخول اللام في خبر "الكن". قال ابن السيد: قد جوّزه الفراء وأصحابه واحتجوا بحجتين هما: أن"الكن" مركبة من: (إن و لكن) الخفيفة وأصلها عند الكوفيين (لكن - إن) حيث جاز دخول (اللام)على(إن) المفردة جاز دخولها على المركبة.أو أن العلة التي سهلت دخول اللام في خبر (إن) موجودة في (لكن) والعلة التي أوجبت دخولها في خبر (إن) أن معنى الابتداء والخبر باقٍ في الجملة لم يبطله دخول (إن) بل زاده تحقيقا لأنها تفيد معنى القسم فجاز دخول (اللام) معها كما جاز دونها و المخبر كأنه قد أقسم مرتين على تحقيق الخبر[28].

رابعا- يأتي ابن السيد بالعلة ليبين صحة أو قبح العبارة التي يوردها أبو القاسم مثلا حين قال:

"...و تقول في أسماء السور "هذه هود، وهذه يونس". تريد سورة هود وسورة يونس.

---

27 - السابق، ص148

28 - السابق ص149

قال ابن السيد: ذِكْرُ "يونس" في هذا الموضوع لا وجه له لأنه لا ينصرف في المعرفة سواء سميت له السورة أو كان اسما للنبي عليه السلام لأنكَ إذا عنيت به النبي عليه السلام ففيه علتان: التعريف، والعجمة وإن سميت به السورة ففيه ثلاث علل: التعريف والعجمة والتأنيث. [29]

خامسا. الكتاب يحفل بالتعليلات النحوية التي وظفها المؤلف وجاءت كلها خدمة لتوضيح المعاني النحوية وتبسيط المشكلات الخلافية للقارىء مع بيان مواقف النحاة من العلل وهي دون شك تعود بالفائدة الكبيرة للمتعلمين حيث ترسخ قواعد النحو لديهم. يقول ابن السيد محللا رأي سيبويه في تعريفه الفعل والحرف دون الاسم ، قال: "... أما سيبويه فإنه حدد الفعل والحرف ولم يحدد الاسم وكأنه جعل تعريفه من حد الفعل وحد الحرف حداً له أوكأنه رأى ما في تحديده من الإشكال الذي أوجب اضطراب كلام العلماء فيه. والأشبه عندي أن يكون جعل تعريته من الحد كالحد له. فإن قيل : فلم خص سيبويه الاسم بذلك دون الفعل والحرف؟ فالجواب أن الاسم هو الأصل والفعل والحرف فرعان عليه، لأن كل واحد منهما محتاج إليه والفروع تحتاج من البيان أكثر مما تحتاج إليه الأصول ألا ترى أن التأنيث لما

29 ـ السابق ص.65

كان فرعا على التذكير احتاج إلى علامة تشعر بتأنيثه ولم يحتج التذكير إلى علامة تشعر بتذكيره، وكذلك الجمع والإفراد والتثنية والنسب وما أشبه ذلك[30] .

إن منهجية الحوار التي تقوم على التواصل المتبادل بين المعلم والمتعلم في شكل حوار قد وظّفه ابن السيد ليساهم في بيان طبيعة العلة المانعة من تثنية الفعل وجمعه وكانت إحدى الوسائل التبليغية المقنعة، قال:

فإن قال قائل: "ما العلة المانعة من تثنية الفعل وجمعه؟ فالجواب أن التثنية والجمع إنما يراد بهما التكثير والإشعار بأن الشيء قد تجاوز حد الإفراد ألا ترى أنك إذا قلت :"زيد" فإنما يدل على شخص واحد فإذا أردت أكثر من شخص احتجت إلى أن تقول:" زيدان" و"زيدون" ، والفعل لا يحتاج فيه إلى ذلك لأن لفظ الفعل يعبر به عما قل منه وما كثر، ألا ترى أن "قام "و"قعد" إنما وضعا في أصل ليعبر بهما عن كل قائم، وقاعد ولم يوضعا ليكونا عبارة عن فعل واحد بعينه .فلم يحتج فيهما إلى تثنية وجمع كما احتيج في الأسماء، ويدل على صحة ذلك أن الفعل إذا لم يتضمن ضميرا لم تلحقه علامة تثنية ولا بجمع .نحو قولك :"قام الزيدان" و"قام الزيدون" ولو كان الفعل مما يثني ويجمع لثني وجمع مقدما على المخبر عنه، كما ثني وجمع

30 ـ السابق ص66

إذا كان مؤخرا ويدل على ذلك أن معنى قولنا : "قام الزيدان" و"قام الزيدون" كان (منهما ومنهم) قيام، ففائدة الفعل هاهنا كفائدة المصدر لو ذكر،فإن قال قائل فما تنكر أن تكون العلة من تثنية الفعل وجمعه الإشعار بتكراره من الفاعل فيكون تثنيته إشعارا بأنه قد فعل مرتين،ويكون جمعه إشعارا بأنه قد فعل مرارا؟ فالجواب يقول: أن التثنية والجمع لو لزما لهذه العلة التي ذكرت لثني الفعل وجمع ،وهو خبر عن الفاعل الواحد لأن الفاعل الواحد قد بفعل الفعل مرتين ويفعله مرارا، فكان يجب على اعتلالك الفاسد أن يقال:" زيد قاما" إذا قام مرتين و"زيد قاموا" إذا قام مرارا وهذا لا يجوز. ثم يواصل طرح إشكالية معنى التثنية والجمع قائلا:"... و إذا قال القائل: قد روي أن من العرب من يقول: "قاما أخواك"و "قاموا إخوتك فيلحق الفعل وهو مقدم علامة التثنية والجمع كما يلحقها إياه وهو مؤخر . فرد ابن السيد على أن طبيعة الألف والواو أنهما حرفان على هذه اللغة وليسا باسمين ،لأن قولنا :" قام أخوك "لا ضمير فيه على هذه اللغة . فالألف والواو على هذه اللغة وإن كانتا حرفين فليستا علامتي تثنية وجمع للفعل، ولكن أهل هذه اللغة أرادوا أن يجعلوا للتثنية والجمع علامة كما جعلوا للتأنيث علامة في قولنا:"خرجتْ هند" وذهبت فاطمة".فكما أن التاء في "خرجتْ" و"ذهبتْ " لا تدل على أن الفعل مؤنث، وإنما تدل على تأنيث الذي أسند إليه الخروج و الذهاب، فكذلك الألف والواو اللاحقتان في "ذهبا أخواك "، و "ذهبوا

إخوتك" لا تدل على أن الفعل مثنى ومجموع، إنما هما دليل على أن المسند إليه الذهاب مثنى ومجموع[31].

والمتصفح لأصل العلة في الكتاب يلحظ أن المؤلف قد استند على أنواع كثيرة من العلل ليصل إلى ما يريده مبررا صحة ما يقدمه من أدلة منطقية ليصل إلى الخلل الذي وقع فيه الزجاجي ثم يعطي للمسألة النحوية التخريجات الصحيحة التي يمكن أن تفيدها ،من هنا فقد تنوعت العلل بتنوع المسائل النحوية منها العلل القياسية، والتعليمية والسببية والتبيينية، و التوكيدية ،و علة مقابلة وعلة تحضيض واطراد وعلة اهمال وعلة ضعف و علة قرب ومجاورة وعلة تغليب وجواز وعلة حمل على المعنى وعلة دلالة على الحال وعلة تخفيف و مشاكلة وعلة استثقال وغيرها من أنواع العلل التي حفل بها الكتاب.

و أشير إلى أن العلل القياسية كانت الأكثر اطرادا لطبيعة الغاية من تأليف الكتاب وسأكتفي بذكر الأنواع الأكثر ورودا منها.

1 ـ علة نص: وهي علة تفسير وسببها لتقريب معناها. فقد ذكر المؤلف نصا للمبرد على لسان الفارسي يشرح فيه هذا النوع من العلل فقال: سمعت عمارة بن عقيل يقرأ (وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقِ النَهَارِ) بالنصب .فقلت له ما تريد؟ فقال: أريد سابقٌ النهارَ فقلت له: فهلا قلتَ فقال: لو قلتُه لكان أوزن أراد أنه استثقل التنوين فحذفه.وقال في موضع آخر

31 ـ السابق، ص151

عدم الجمع بين الألف واللام بالإضافة فلا تقول: ذا الصاحب عمرو لأن الاسم لا يتصرف من وجهين مختلفين [32].

2 ـ **علة مناسبة:** وأطلق عليها النحاة قياس علة وهو أن يحمل الفرع عن الأصل بالعلة التي علق عليها الحكم في الأصل كحمل ما لم يسم فاعله على الفاعل بالرفع بعلة الاسناد، وكحمل المضارع على الاسم في الاعراب بعلة اعتوار المعاني عليه وقد مثل لها في مواضع كثيرة من الكتاب من ذلك تعقيبه على أبي القاسم حين قال: وأما فعل الحال فلا فرق بينه وبين المستقبل في اللفظ. قال: وفعل الحال ليست له صيغة يختص بها في لسان العرب وهذا مما يحتج به الذين نفوا فعل الحال .وهذا لا حجة لهم فيه لوجهين:

أحدهما: أن له صيغة في غير اللسان العربي .وهي إشارة علمية تدل دلالة قاطعة على سعة اطلاعة باللغات الأخرى.

والثاني: أن في لغة العرب أشياء كثيرة لم توضع لها صيغ تختص بها ولا يبطل ذلك أن تكون موجودة لأن وجود الشيء ليس بوجود اسمه إنما وجوده أن يكون حقا ثابتا في ذاته وقد وحدنا النصب في التثنية والجمع السالم قد أشرك مع الخفض ولم يوضع له لفظ ينفرد به ولم يكن في ذلك دليل على أنه ليس بموجود .فإن قال قائل: فلم كان اشتراك فعل الحال مع الفعل المستقبل أولى من اشتراكه مع الفعل الماضي ؟.

32 ـ السابق، ص157

فالجواب: أنه أشبه بالمستقبل منه بالماضي ،لأنه معرب مثله وكل واحد منهما تلحقه الزوائد الأربع ومن طريق النظر أن الفعل الماضي معدوم ،وفعل الحال موجود فهما متضادان والفعل والفعل المستقبل ممكن والممكن أقرب إلى الموجود من المصدوم.[33]

3 ـ **علة عدم الاستعمال :** وهو ما يجري النحاة على أنه غير مستعمل في اللغة بالنص و من شواهد هذه العلة ما نقله ابن السيد عن أبي القاسم الزجاجي في باب التوكيد بـ"أجمع وأكتع " وهو أن العرب اشتغنت عن" أجمعين" "أكتعين"" أبصعين" بكليهما." وعن"جمعاوين كتعاوين بصعاوين" "بكلتيهما".وجاءت حالة عدم الاستعمال بصورة استغناء عن شيء بقوله: واستغنوا بترك أن يقولوا وَدَعَ و وَذَرَ بقولهم تارك عن أن يقولوا وادِع و واذِر.[34]

4 – **علة حذف:** وهي من أنواع العلل التي تفيد الاشتقاق الذي يلحق بالكلمة وتعددت عند ابن السيد في مواضع كثيرة منها تعديله حذف ما كان أصلا في الكلمة كحذفهم الواو في نحو قول المخلب:

فَبَيْنَاهُ يَشْرِي رَحْلَه قالَ قَائِلٌ لِمَنْ جمَلٌ رخوُ المِلاَطِ نَجِيبُ.[35]

أراد: بينما هو. ، حيث حذف الواو من هو للضرورة.

---

33 ـ السابق، ص125

34 ـ السابق، ص127

35 ـ السابق، ص132

5 ـ علة سماع: تعد هذه العلة أكثر العلل تداولا بين النحاة بحكم أن السماع هو أهم أصول النحو وهذا لا يعني أنه كان يقبل كل ما يسمع ويقيس عليه، فقد رفض الشاذ والنادر إلاما جاء في بابه، فلا مانع من القياس عليه. وقد بين أن لهذا الحكم علة هي السماع لا اضطراب فيها ولا تعقيد. فقد شاع عن العرب قولهم مثلا :امرأة ثدياء ولا يقال:رجل أثدى وليس من علة في ذلك إلا السماع. ونلمس أهمية علة السماع من خلال الحوا ر الذي دار بين أبي حاتم السحباتي والتوزي والذي سجله المفسر عن لفظة " الفردوس" أهو مذكر أم مؤنث؟ فقال أبو حاتم مذكر وقال التوزي مؤنث. لقول الله تعالى(الفردوسُ هُمْ فيهَا خالدُونَ). المؤمنون(11). فقال أبو حاتم: إنما أنّث لأنه ذهب إلى معنى الجنة : فقال التوزي: ياغافل .أما سمعت الناس يقولون أسلك الفردوس الأعلى، فقال له أبو حاتم: يانائم: الأعلى: هاهنا أفعل وليس بفعلى فخجل التوزي ونكس رأسه [36]. من هنا حدد المؤلف أن مرجعية العلة في التذكير والتأنيث لا تعود إلا للسماع عند أكثر العرب.

إن القارىء المتمعن يلحظ أن علة السماع أكثر أنواع العلل انتشارا بعد العلل التعليمية حيث ساقها المفسر محاولا تبسيط المسائل النحوية التي عالجها وقد عبّر عنها ابن السيد بمصطلحات تقويمية

36 ـ السابق، ص138.

وهـي مناسبة تساير المجالات التعليمية منها قـوله مثلا :"...والقارئون لكتـابه يزيدون من طرة الكتاب "، "الأقرب إلى فهمالمتعلمين"، "وأنا ألخصّ هذا الباب على وجه الاختصاص وأضرب عن التطويل"، و"الأجـود أن يـقـول" أو"كـان الصـواب أن يـقـول":"وهـذا يـوهـم للقارئ" " هذا كلام جمع الخطأ والكذب"[37]

وقد عالج ابن السيد العلة معالجة طبيعية وتعامل معها باستنباط قوانينها واستجلاء خصائصها فتظافرت الأدلة والحجـج مبينا فصاحة اللغة، متأثرا بسيبويه حين قال :"...وليس شئ مما يضطرون إليه إلا وهم يحاولون به وجها" بذلك وقف موقف السابقين من العلة و نهج أساليب التعليل مبينا مواقفه من المواضع اللغوية التي ينشأ حولها الـخـلاف فـلـم يـقـف طـويـلا كسابق يه مسهبا في بيان جدال الفرق الكلامية ، ولم يحصر اتجاه العلة في تناول النص و تأويلاته المختلفة .إنما اتبع طريقة متميزة في معالجة صور العلة يقول مبينا منهجه في التعليل :"وليـس غرضي أن أحصر أصناف المذاهب والآراء وأناقض ذوي البدع المضللة والأهواء ،لأن هذا الفـن من العلم قد سُبق إليه ونُبـه في مواضع كثيرة عليه و إنما غرضي أن أنبه على المواضع التي منها نشأ الخلاف بين العلماء حتى تباينوا في المذاهب و الآراء".[38]

37 ـ السابق ، ص154 ، ومواضيع أخرى مبثوثة في ثنايا الكتاب.

38 ـ السابق ص112.

من خلال هذا النص يستنتج الدارس طبيعة الأصول التي بنى عليها اللغويون والنحاة و حتى الفقهاء قواعدهم و الأسس الفلسفية، و المعايير التشريعية التي تساعدهم في تفسير وتخريج آرائهم النحوية المتعددة واتجاهاتهم المتباينة ،ولطبيعة المسائل التي تعرض إليها يلمس الباحث المتخصص كثرة العلل القياسية، و التعليمية إذ كانت غايته سد مواطن الخلل التي وقع فيها أبو القاسم ضف إلى ذلك مكانة هذه العلل في العملية التعليمية من تمكين المتعلمين على اكتساب قواعد اللغة التي تساهم في فهم نصوص القرآن فهمًا دقيقًا،وحماية اللسان من الوقوع في اللحن. و لشدة حرصه على تجنب الوقوع في الخطأ وفتح باب النقد لما يراه لم يصرح في العديد من المواضع بموقفه من جدوى هذه العلل ولم يحدد قبوله علة، أورفضه أخرى ،أو أنه يفضل علة على أخرى بل عامَلَ العلل وفق طبيعة المسائل النحوية إلا أن العلة التعليمية كانت الأكثر دورانا. لما لها من جوانب نفعية في العملية التعليمية .

والخلاصة التي يصل إليها الدارس أن المؤلف من النحاة الأوائل في الأندلس من إلتف إلى فكرة التعليل بأنواعه الصوتية، والصرفية والنحوية، والدلالية حيث تمكّن من بلورة وظيفته ،وبيان صوره مقتديا بالخليل الذي برع في تصنيف العلل سواء باستعماله أوتحليله الظواهر النحوية التي تعبر عن أهم مبدأ من مبادئ النحو الوصفي في الدرس اللساني الحديث.

أخيرا يمكن القول إن ابن السيد لم يخرج عن غاية العلة التي تكمن في دراسة الظواهر اللغوية لذاتها بل تعدوا في الكثير من الأحيان إلى البحث عن الأسباب المبدئية لخصائص العربية. وإذا كان الغلو والإغراق والتفنن في التأويلات شأن أغلب نحاة المشرق فإن ابن السيد اكتفى بالتعليل الهادف الذي يخدم اللغة ويحافظ على خصائصها التركيبية ويساهم في بيان أسرارها البلاغية فجاءت وفق السياق الطبيعي للتطور العلمي للغة العربية في بلاد الأندلس متأثرا بالثقافة الدينية التي لقيت اهتماما بالغا في البيئة الأندلسية.

التفكير اللساني عند ابن خلدون وعلاقته بعلم العمران

إعداد : أ .عمر لحسن
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة عنابة ـ الجزائر

1 ـ مقدمة :

قد يتساءل أحد عن سبب الاهتمام بابن خلدون في عصرنا، وقد بلغت الدراسات اللسانية في العالم مستويات من التفكير تضاهي أكثر العلوم الإنسانية والتكنولوجية. غير أن هذا التقدم السريع جعلها تقيم قطيعة مع الدراسات اللسانية القديمة، وفي هذا الصدد يقول تشومسكي: «وفي المقابل، انقطعت اللسانيات الحديثة بطواعية عن النظرية اللسانية التقليدية وحاولت إنشاء نظرية لسانية بكيفية جديدة كل الجدة ومستقلة. ولم يهتم اللسانيون المحترفون عموما إلا قليلا بالإسهامات المقدمة إلى النظرية اللسانية من قِبَل التقليد الأوروبي السابق، واهتموا بمسائل مختلفة جدا، داخل نطاق ثقافي بعيد عن أن يجعلهم مدركين للمسائل التي أثارتها الدراسات اللسانية الأكثر قدما،

والتي أوصلت إلى النتائج المحققة إلى حدّ الآن ، وما زلنا إلى اليوم نجهل كثيرا إسهامات الماضي هذه أو ننظر إليها باستخفاف غير خفي »[1] .

ولم يكن العرب بمنأى عن هذا الموقف المجحف ، وذلك لأنهم انساقوا وراء منجزات اللسانيات المعاصرة الوافدة من الغرب ـ والمغلوب مولع بالغالب دائماـ تاركين وراءهم تراثا عربيا زاخرا . ولهذا السبب فكرت في هذه المحاضرة أن ألقي الضوء على الإسهامات اللسانية لابن خلدون ، التي بقيت مجهولة رغم الدراسات والمقالات والكتب التي ألفت حوله. فكانت عبارة عن تأملات ونظرات في المباحث اللسانية عنده، وما قابلها من نظريات وآراء في اللسانيات المعاصرة، بمختلف مدارسها ومناهجها .

قد يرى البعض أنني مجحف في حق الرجل، بإقحامه في مجال هو بعيد عنه، مجال اللسانيات في القرن العشرين، وهو الذي عاش في القرن الخامس عشر ، لكن الذي جعلني أجرؤ على هذا الموقف أنّ أغلب الذين أرخوا له عدّوه متجاوزا عصره بكثير ، أو اعتبروه طفرة في الزمن، حيث يقول المسدي :«وكثيرا ما يشير الباحثون إلى غرابة ظهور ابن خلدون في فترة انحسار المد الحضاري العربي ، معتبرين أن المناخ الفكري الذي ساد طيلة القرن السابع والقرن الثامن ما كان يسمح

1ـ Noam Chomsky, la linguistique cartésienne, trad. par N. Delanoé et P. Sperber, ed. du Seuil, Paris 1969.

موضوعيا بظهور فكر متميّز على الصعيد الإنساني يتجاوز كل مكتسبات المعرفة البشرية الحاصلة قبله » [2] . ويقول باحث آخر : «ربما كان من الإنصاف بمكان أن نعترف [...] بأننا مجحفون في حق الرجل إذا ما أخذنا بعين الاعتبار كل ما تكتنزه هذه الشخصية العلمية الفذة من معارف أنسكلوبيدية جامعة وإحاطات علمية وإبستمولوجية واسعة ، على الرغم من العصر الذي وجد فيه ابن خلدون كان عصر وهن وضعف وضحالة في فضاءات الفكر والإبداع » [3] .

إن ما زاد اهتمامي بالجانب اللساني عند ابن خلدون أن أغلب الدارسين من الغرب والشرق نظروا إلى شخصيته من زوايا علمية متعددة، وعدّوه متعدد الاختصاص متشعب الاهتمامات، فهو تارة عالم اجتماع، وتارة فيلسوف ، وتارة مؤرخ، ذلك أن » مذهبه الفكري وأسلوبه الذي في حقيقته مزيج من علوم متعددة « [4] .

---

2 ـ عبد السلام المسدي ، قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون ، دار سعاد الصباح ، الكويت / القاهرة ط 4 ، 1993 ، ص 152 .

3 ـ عبد الجليل مرتاض ، ابن خلدون والدرس اللغوي الحديث ، مجلة اللغة العربية ، المجلس الأعلى للغة العربية ، الجزائر عدد 8 ، 2003 ، ص 83 .

وإن كان المسدي يرى أن ظهور ابن خلدون لا يعد بمثابة الطفرة ، بل جاء في الوقت الذي كان يجب أن يظهر فيه ، لأن العلوم العربية الإسلامية تمخضت وتراكمت ووصلت معه إلى مرحلة قطف الثمار ، حيث يقول : »فإذا صح عندك ما افترضنا [...] تبين لك كيف أن ابن خلدون ما كان إلا ثمرا طبيعيا لنمط الحضارة التي أنشأته ، فالتكفير النقدي العربي توليدي كما عرفت ، فهو إذن مثمر خصيب وثمرته هي ابن خلدون « . قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون ، ص 158 .

4 ـ حسّان حلاق ، مقدمة في مناهج البحث التاريخي ، دار النهضة العربية ، بيروت 1986 ، ص 310 .

لقد كان ابن خلدون من ألمع الشخصيات العربية الإسلامية التي حظيت بمكانة متميزة عند المفكرين الغربيين والعرب ، بل ربما كان اهتمام الغرب بآرائه وأفكاره هو الذي دفع بالعرب إلى الاهتمام به. فلولا تحقيق الغرب لآثاره ونشرها وترجمتها إلى لغاتهم ما نال الحظوة التي نالها عند أهله من العرب [5] .

ولما كان اهتمام الغرب منصبا على الجوانب الفكرية والفلسفية والاجتماعية ، فقد أهملت آراؤه في المجال اللساني ، رغم أنها لا تقل أهمية عن غيرها من الآراء الخلدونية . وهذا ما حدا بي إلى محاولة إلقاء الضوء على تصنيفه لعلوم اللسان وتعريفه إياها في ضوء النظرية اللسانية المعاصرة، وعلاقة هذه العلوم بالنظرية الخلدونية العامة ، المتمثلة في علم العمران البشري ، كما جاء مبسوطا في المقدمة . لقد مثلت المقدمة » منظومة الفكر الأصولي المتكامل في مسار الحضارة العربية، وهذه المصادرة تستوجب التسليم بأن ابن خلدون ـ فضلا عن أنه فلسف علم التاريخ واشتق علم العمران ـ قد أمسك في مقدمته بأزمة مراتب أخرى تتداخل وتتفاعل إلى حد التراكب الكثيف فهو في المنزلة الأولى مؤرخ للعلوم ، وفي المنزلة الثانية ناقد لأصول العلوم ومناهجها وثمارها ، ثم هو في الثالثة منقّب عن خصائص المعرفة الإنسانية وكليات الإدراك البشري « [6] .

---

5 ـ انظر يسرى عبد الغني عبد الله ، معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 1 ، 1991 ، ص 74 (بتصرف).

6 ـ المسدي ، قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون ، ص 163 .

يعد كتاب ابن خلدون مشروعا حياتيا ، قضى معظم فترات حياته في تأليفه ومراجعته، إذ استغرقت مدة كتابته أكثر من عشرين سنة ، حيث كتب المقدمة في أربعة أعوام [7] لما كان مقيما في قلعة ابن سلامة في غرب تلمسان (وهي تقع الآن قرب مدينة وهران) ، أما الأجزاء المتبقية فأكملها خلال إقامته بمصر ، التي بقي فيها حتى وافته المنية سنة 806 هـ (1406م) عن عمر يناهز ثمانية وسبعين سنة [8]. ورغم أن لسان بن الخطيب قد ذكر في ترجمة ابن خلدون (في كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة) مجموعة من الكتب قد ألفها ابن خلدون ، من بينها شرح البردة ، وتلخيص كثير من كتب ابن رشد ، وكتاب في الحساب ... [9] ، إلا أن ابن خلدون لم يشر إلى هذه المؤلفات حين ترجم لنفسه في كتاب مستقل في آخر كتاب العبر ، بعنوان : التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا . وكأنه لا يراها ذات أهمية تذكر، لأنها قد تثنيه عن مشروعه المتمثل في كتاب " العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأعظم " .

7 ـ وقد صرح هو نفسه بذلك .

8 ـ جميل صليبا ، الموجز في تاريخ العلوم عند العرب ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط 3 ، 1981 ، ص 146.

9 ـ المرجع نفسه ، ص 150 .

2 ـ علم العمران عند ابن خلدون :

يتمثل هذا المشروع في وضع كتاب يشتمل على ما يؤمن به من أفكار ومبادئ ، تتلخص في نظرية العمران ، التي يصرح بأنه هو الذي ابتكرها في قوله: «اعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة غريب النزعة عزيز الفائدة أعثر عليه البحث وأدى إليه الغوص. [...] ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة ما أدري ألغفلتهم عن ذلك وليس الظن بهم ، أو لعلهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه ولم يصل إلينا . [...] ونحن ألهمنا الله إلى ذلك إلهاما وأعثرنا على علم جعلنا بين نكرة وجهينة خبره. فإن كنت قد استوفيت مسائله وميزت عن سائر الصنائع أنظاره وأنحاءه فتوفيق من الله وهداية ، وإن فاتني شيء في إحصائه واشتبهت بغيره فللناظر المحقق إصلاحه ، ولي الفضل لأنني نهجت له السبيل وأوضحت له الطريق والله يهدي بنوره من يشاء» [10] . وإن كان يعترف بأن بعضا من العلماء والحكماء من الفرس (الموذبان وأنوشروان) ومن اليونان (أرسطو) ومن العرب (ابن المقفع والطرطوشي) قد سبقه في التطرق إلى هذا الموضوع ، غير أن كتاباتهم لم ترق ـ في نظره ـ إلى مستوى نظريته من حيث دقة التناول وشمولية تحليل المسائل المتعلقة بالعوارض والأحوال التي تطرأ على العمران البشري والاجتماع الإنساني .

---

10 ـ المقدمة ، ص 44 .

ويرى أن موضوع الكتاب الذي ألف يتلخص في «وهذا هو غرض الكتاب الأول من تأليفنا، وكأنه علم مستقل بنفسه. فإنه ذو موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني، وذو مسائل وهي بيان ما يلحقه به من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى. وهذا شأن كل علم من العلوم وضعيا كان أو عقليا »[11] . فهذا التعريف الموجز يوضح بشكل صريح مفهوم العلم الذي سعى ابن خلدون إلى وضع أسسه ومعالمه في المقدمة، والذي أطلق عليه اسم علم العمران البشري.

فموضوع هذا العلم الذي هو العمران البشري بكل مظاهره المادية والمعنوية، الاجتماعية والسياسية والإيديولوجية والعلمية والعقدية، البدوية والحضرية ، اللغوية والبلاغية والأدبية ، ذلك أن البشر الذين ميزهم الله تعالى عن سائر المخلوقات بالعقل والفكر ، الذي يسمح لهم بتعلم العلوم والصنائع . لقد كانت طبيعة العيش البشر الاجتماعية ، والتساكن والتنازل في بلد ما أو حِلّة للأنس بالعشير واقتضاء الحاجات لنا في طباعهم من التعاون على المعاش مما تميز به بنو آدم عن الحيوانات. وقد قسم ابن خلدون العمران البشري إلى نوعين : عمران بدوي وعمران حضري ، حيث يتميز كل نوع منهما بخصائص تجعله يختلف عن الثاني. ولذلك فقد قسم وفق ذلك كتابه إلى ستة فصول ، جاءت موزعة كما يلي :

11 ـ المصدر نفسه ، ص 43 – 44 .

(المقدمة)

في كيفية نقل الخبر

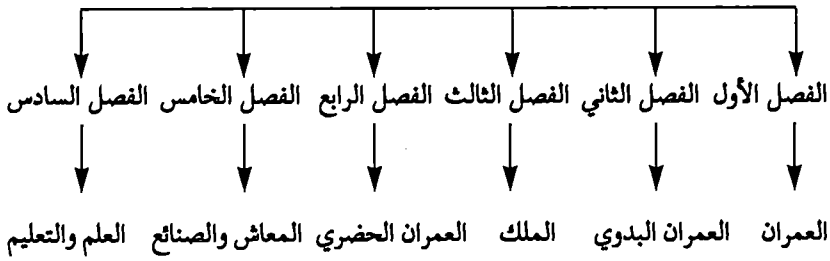

إن هذا الترتيب الذي اقترحه ابن خلدون لأبواب لم يكن عفويا ، ولا مجرد صدفة، بل كان مقصودا ، حيث يبرره المؤلف بقوله :« وقد قدمت العمران البدوي لأنه سابق على جميعها كما نبين لك بعد ، وكذا تقديم الملك على البلدان والأمصار. أما تقديم المعاش فلأن المعاش ضروري طبيعي وتعلم العلم كمالي أو حاجيّ، والطبيعي أقدم من الكمالي. وجعلت الصنائع مع الكسب لأنه منه ببعض الوجوه ومن العمران » . [12]

وقد جاء هذا الترتيب بشكل منطقي، وكأنه يتبع مبدأ النشوء والارتقاء ، إذ كل مستوى يتولد من المستوى الذي سبقه ، ويبدأ هذا الترتيب الهرمي من العمران البدوي الذي هو أصل كل أنواع العمران ، بالنظر إلى أنه أبسطها على الإطلاق، يليه الكلام عن نظام الملك

12 ـ المصدر نفسه ، ص 47 .

والحكم (السياسة) ، وهو باب يدور كله «حول موضوع السياسة ودورها في بناء العمران ، من خلال أطوار الدولة واختلاف أحوالها واختلاف أهلها باختلاف الأطوار ،سواء بالانتقال من البداوة إلى الحضارة أو من الحضارة إلى الهرم ، وإلى خراب العمران ، ليصل إلى نتيجة منطقية كانت منتظرة ، وهي أن العمران البشري لا بد له من سياسة ينتظم بها أمره» [13] ، ثم نجد المستوى الموالي المخصص للعمران الحضري ، الذي يرتكز عن المستوى السابق ، فبصلاحه يصلح العمران ، ذلك أن السياسة هي أساس الملك ودوام الحضارة والعمران. أما المستوى الخامس المخصص للمعاش والكسب والصنائع التي تكتمل باكتمال العمران الحضري وكثرته ، وهو ما يفسر حسب ـ ابن خلدون ـ أن العرب كانوا أبعد الناس عن الصنائع . ويبلغ تطور العمران الحضري أوجه من خلال أنماط العيش ، فينتقل إلى مرحلته الأخيرة ، مرحلة العلم ، تطبيقا لمبدأ " بداية الفكر نهاية العمل " ، التي تلخص بكيفية أخرى قانون النشوء والارتقاء [14]. ويمكن أن نبين هذا الترتيب الهرمي وفق المخطط التالي :

---

13 ـ محمد الصغير بناني ، البلاغة والعمران ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1996 ، ص 38 ـ 39

14 ـ انظر : المرجع نفسه ، ص 40 . وأشار إليها الأستاذ عمار طالبي في مداخلة في ندوة حول " ابن خلدون والفكر العربي المعاصر "بتونس وتم طبع الأعمال سنة 1980 بالدار العربية للكتاب، وأطلق عليها اسم "النظرية الارتقائية".

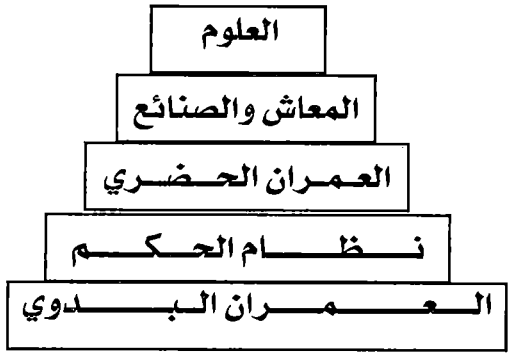

إن النظرة السريعة على عدد الصفحات التي اشتمل عليها كل فصل من فصول المقدمة تظهر لنا بشكل جلي الأهمية التي أولاها ابن خلدون للفصلين الثالث والسادس ، إذ جاءت كما يلي :

مقدمة	40 صفحة
الفصل الأول	80 صفحة
الفصل الثاني	30 صفحة
الفصل الثالث	168 صفحة
الفصل الرابع	32 صفحة
الفصل الخامس	45 صفحة
الفصل السادس	145 صفحة

فعدد الصفحات المرتفع بشكل لافت للانتباه في هذين الفصلين يبرز بلا شك الأهمية البالغة لموضوع الملك والعلوم في النظرية الخلدونية، غير أن الفصل السادس يعد أكبر الفصول حجما إذا ما أضفنا إليه ما جاء في الفصل الأول حول أصناف المدركين للغيب،

ذلك أنه يشكل المغزى الرئيسي في نظرية التطور العمراني في رأي ابن خلدون ، إذ أن موضوع هذا الفصل هو العلوم وما يتصل بها من القضايا الفكرية واللسانية ، التي ينتهي تطورها في "حال" [15] يعود الفضل في اكتشافه على خذا الوجه إلى ابن خلدون ، وهو ما يسميه بطرق التعليم . فالعلوم بوصفها عمرانا فكريا ولسانيا وفنيا ينتهي تطورها في صناعة الشعر، وبوصفها عمرانا صناعيا ينتهي تكورها في صناعة التعليم. وهاتان الصناعتان تأتيان في قمة الهرم وتشكلان أوج العمران وآخر ما يتجلى فيه قبل التطور النهائي ..

فالعلوم كما نرى معنيّة هي الأخرى بنظرية النشوء والارتقاء ، ذلك أنه يعرض لها من الأحوال ـ حسب رأي ابن خلدون ـ ما يعرض غيرها من الكائنات، فهي تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة ، وينطوي بساطها لما يتناقص العمران ، ومن جهة أخرى فإن تعليم العلم يعدّ من جملة الصنائع التي تظهر وتحتفي بظهور العمران البشري واختفائه .

3 ـ علوم اللسان :

إن الحيرة الاصطلاحية التي لمسناها في الصفحات الأولى من كتاب دو سوسير، وهو يحاول تحديد موضوع اللسانيات (التي تسعى إلى أن تصبح علما)، حيث يميز بين ثلاثة مستويات هي:

15 ـ مصطلح الحال مصطلح خاص بابن خلدون ، ويدل على مرحلة من مراحل التطور العمراني .

langage - langue - parole، لا نجد لها أثرا عند ابن خلدون ، حين أراد أن يصنف علوم اللسان ، حيث يقول : « في علوم اللسان العربي: أركانه أربعة: وهي اللغة والنحو والبيان والأدب ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة» [16] . فاللسان ، في هذا التعريف يشمل موضوعات متنوعة، وتدخل في تكوينه عناصر مختلفة ، ولذلك فإننا نراه مقابلا لمصطلح سوسير langage ، الذي يعرفه صاحبه قائلا » اللغة واللسان عندنا ليسا بشيء واحد. فإنما هي في الآن نفسه نتاج اجتماعي لملكة الكلام ، ومجموعة من المواضعات يتبناها الكيان الاجتماعي ليمكّن الأفراد من ممارسة هذه الملكة . وإذا أخذنا اللسان جملة بدا لنا متعدد الأشكال متباين المقومات موزعا في الآن نفسه بين ميادين متعددة بما فيها الفيزيائي والفيزيولوجي والنفسي » [17] . أما اللغة فتقابل عند سوسير مصطلح langue ، الذي يعرفه قائلا : « أما اللغة فهي على عكس ذلك ، كل بذاته ومبدأ من مبادئ التبويب . وما إن نعطي اللغة المكانة الأولى ضمن أحداث اللسان ، حتى ندخل نظاما طبيعيا إلى مجموعة من الظواهر لا تسمح بأي نوع من التصنيف » [18] . ما نستشفه

16 ـ المصدر نفسه ، ص 500 .

17 ـ Saussure, cours de linguistique générale, édition Payot, Paris 1974 , p. 25.

18 - Ferdinand de Saussure, cours de linguistique générale, édition Payot, Paris 1974 , p. 25 - Ibid, p. 25

اعتمدنا في هذا النص على ترجمة صالح القرمادي ومحمد الشاوش ومحمد عجينة لكتاب سوسير بعنوان : دروس في الألسنية العامة ، الدار العربية للكتاب ، تونس 1985 ، ص 29 . غير أنهم يترجمون مصطلح langage كلام ، ومصطلح parole لفظ . وقد أشرنا في محاضرة ألقيناها بسوسة (تونس) في شهر ديسمبر 2005 بملتقى حركية المصطلح الذي نظمته وحدة البحث " النقد ومصطلحاته " إلى الاختلاف الكبير في ترجمة مصطلحات سوسير بين اللسانيين العرب .

من هذه التعريفات التي جاء بها ابن خلدون وسوسير أن اللغة جزء من اللسان ، وأن اللسان أعم وأشمل منها ، إذ هي تدخل في تكوينه ، وإن كان عبد القادر المهيري يرى عكس ذلك ، إذ يعتقد أن ابن خلدون يستعمل مصطلح اللسان للإشارة إلى نظام علامي بعينه ، ومصطلح اللغة بمدلولات تختلف باختلاف السياق ، ولا يمكن أداؤها بمصطلح اللسان ، ومنها في المرتبة الأولى أداة التخاطب عامة بغض النظر عن كونها خاصة بقوم دون قوم [19] .

وإذا كان المصطلحان يتداخلان أحيانا في مقدمة ابن خلدون أو يترادفان ـ حسب رأي المهيري ـ فهذا ، راجع في نظرنا ، إلى التقارب الشديد في دلالتهما من جهة ، وإلى أن السياقات التي وردا فيهما لا يتطلبان الدقة الاصطلاحية العلمية . غير أن السياق الخلدوني الذي أوردناه فرض على ابن خلدون أن يميّز بينهما تمييزا علميا صارما ، إذ كان بصدد تصنيف العلوم اللسانية ، وهو موقف يتطلب من صاحبه أن يتحلى بالدقة والصرامة العلمية . أما المصطلح الثالث ، وهو مصطلح الكلام ، الذي يقابل مصطلح سوسير parole ، فقد جاء كذلك مطابقا في معناه للمعنى الذي قصده سوسير ، إذ يدل على الاستعمال الفردي للغة في المواقف التخاطبية المختلفة .

19 ـ عبد القادر المهيري ، نظرات في التراث اللغوي العربي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط 1 ، 1993 ، ص 187 .

ومن جهة أخرى ، فإن تصنيف ابن خلدون لعلوم اللسان يكاد يكون مطابقا لما نجده في اللسانيات المعاصرة ، حيث يرى ـ كما أسلفنا ـ أن أركانه أربعة هي : النحو واللغة والبيان والأدب ، ويتفرع كل ركن منها إلى مجموعة من الفروع لتكون شجرة علوم اللسان عنده كثيفة ، وافرة . ويرى ابن خلدون أن هذه الأركان متفاوتة في القيمة والرتبة بحسب دورها في تحصيل الملكة لدى المتكلم، حيث جاء ترتيبها كما يلي [20]:

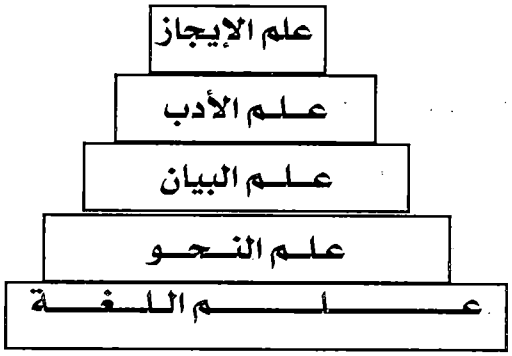

فعلم اللغة يأتي في المرتبة الأولى ، يليها علم النحو ، ثم علم البيان ، وعلم الأدب، ليختم الهرم في قمته بعلم الإعجاز القرآني وعلم الشريعة، ذلك أن الهدف الأسمى من اكتساب اللغة واستعمالها وحصول ملكتها هو فهم النص القرآني والأحاديث النبوية الشريفة واستنباط الأحكام الشرعية منهما، حيث يقول: « فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة. وتتفاوت في التأكيد بتفاوت مراتبها في

---

20 ـ هذا الشكل مأخوذ من : محمد الصغير بناني ، البلاغة والعمران عند ابن خلدون ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1996 ، ص 48 .

التوفية بمقصود الكلام » [21] . ويقصد بعلم اللغة صناعة المعاجم ، ويعني عنده « بيان الموضوعات اللغوية» [22] ، وكان سبب تأليف المعاجم ـ في رأيه ـ كثرة اللحن وفساد الملكة اللسانية وخشية الدروس وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث على حد قوله . أما علم النحو فقد ميز فيه تمييزا مستنيرا واعيا بين صناعة الإعراب لذاتها، وبين الملكة اللغوية التي ينبغي العمل من أجل تكوينها في لسان طالب العربية ، وعدم الانشغال بقوانين الإعراب المتشعبة ، التي لا طائل تحتها في الكتابة والتعبير والمعنى [23] وهو يرى أن Å«صناعة العربية إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة ، فهو علم بكيفية لا نفس الكيفية ، فليست نفس الملكة ، وإنما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع ولا يحكمها عملا . فإن العلم بقوانين الإعراب إنما هو علم بكيفية العمل ، ولذلك نجد كثيرا من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علما بتلك القوانين إذا سئل في كتابة سطرين إلى أخيه أو ذوي مودة ، أو شكوى ظلامة ، أو قصد من قصوده أخطأ فيها عن الصواب أو أكثر من اللحن وكذا نجد كثيرا ممن يحسن هذه الملكة ويجيد الفنين من المنظوم والمنثور، وهو لا يحسن إعراب الفاعل من

21 ـ ابن خلدون ، المقدمة ، ص 500 .

22 ـ المصدر نفسه، ص 502 .

23 ـ نايف معروف ، خصائص العربية وطرائق تدريسها ، دار النفائس بيروت 1985 ، ص 174 .

المفعول، ولا المفعول من المجرور ، ولا شيئا من قوانين صناعة الكتابة. من هذا تعلم أن تلك الملكة هي غير صناعة العربية ، وإنما هي مستغنية عنها بالجملة » . [24]

فالنحو عنده يجب أن يقتصر على القسط الذي يجعل المتعلم يحصّل الملكة اللسانية، لأنه وسيلة لا غاية ، يقول: « فأما العلوم التي هي مقاصد فلا حرج في توسعة الكلام فيها وتفريع المسائل واستكشاف الأدلة والأنظار، فإن ذلك يزيد طالبها تمكنا في ملكته وإيضاحا لمعانيها المقصودة . وأما العلوم التي هي آلة لغيرها ، مثل العربية والمنطق وأمثالها ، فلا ينبغي أن ينظر فيها إلا من حيث هي آلة لذلك الغير فقط [...] فكلما خرجت عن ذلك خرجت عن المقصود وصار الاشتغال به لغوا، مع ما فيه من صعوبة الحصول على ملكتها بطولها وكثرة فروعها » [25] .

أما علم البيان فيقصد به البلاغة، التي يرى أنها فرع من علم البيان في قوله: «فاشتمل هذا العلم المسمى بالبيان على البحث في هذه الدلالة التي للهيئات والأحوال والمقامات ، وجعل على ثلاثة أصناف: الصنف الأول يبحث فيه عن هذه الهيئات والأحوال التي تطابق باللفظ جمع مقتضيات الحال ، ويسمى علم البلاغة . والصنف

24 ـ ابن خلدون ، المقدمة ، ص 513 .

25 ـ المصدر نفسه ، ص 493 .

الثاني يبحث فيه عن الدلالة على اللازم اللفظي وملزومه وهي الاستعارة والكناية كما قلنا ، ويسمى علم البيان . وألحقوا بهما صنفا آخر وهو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق إما بسجع يفصله أو تجنيس يشابه بين ألفاظه أو ترصيع يقطع أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه لاشتراك اللفظ بينهما وأمثال ذلك ، ويسمى عندهم علم البديع » [26] . أما علم الأدب فقد ميز فيه بين الشعر والنثر، وبيّن أن لكل واحد منهما خصائصه التي تميزه عن الآخر. وقد رأى أن «هذا العلم لا موضوع له ينظر في عوارضه أو نفيها . وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته ، وهي الإجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم » . [27] كما يرى أن طريقة العرب في تعريف الشعر من حيث هو الكلام الموزون المقفى لا تقدم حدا ولا رسما لهذا الفن، إذ الشعر عنده «هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي ، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده ، الجاري على أساليب العرب المخصوصة به » . [28] وهو تعريف شامل لكل ما يتميز به الشعر من حيث الشكل ومن حيث المعاني.

26 ـ المصدر نفسه ، ص 506 .

27 ـ المصدر نفسه ، ص 507 .

28 ـ المصدر نفسه ، ص 525 .

إن الذي يثير انتباهنا فعلا « أن الأصناف التي صنفها ابن خلدون تحت مصطلح علوم اللسان العربي هي عين ما نراه اليوم ونقف عليه في الدراسات اللغوية الغربية الحديثة » [29] وخير مثال على هذا التصنيف ما نجده في كتاب " المعجم الموسوعي لعلوم اللسان " (Le dictionnaire encyclopédique des sciences du langage)، حيث يشمل الموضوعات والفروع التالية :

- **الباب الأول :** المدارس اللسانية .

- **الباب الثاني:** الحقول (les domaines)، واشتمل على الموضوعات التالية :

مكونات الوصف اللساني، اللسانيات الجغرافية، علم الاجتماع اللساني، علم النفس اللساني، البلاغة والأسلوبية، الشعرية ، السيميائية، فلسفة اللغة .

- **الباب الثالث:** المفاهيم المنهجية (œcepts méthodologiques lescon)، ويتناولان فيه :

الدليل، التركيب ونمطية الاستبدال، الفئات اللسانية، اللغة والكلام، المعيارية، الاعتباطية، الآنية والزمنية، تاريخ الأدب ، الأجناس الأدبية ، اكتساب اللغة ، علم أمراض الكلام .

- **الباب الرابع :** المفاهيم الوصفية (Les concepts descriptifs)، وفيه المواضيع التالية :

---

29 ـ عبد الجليل مرتاض ، ابن خلدون والدرس اللغوي الحديث ، ص 99 .

الوحدات الدالة ، النطق الصوتي اللساني ، نظم الشعر ، الكتابة ، أقسام الخطاب، الوظائف النحوية للشخصية ، القواعد التوليدية ، البنيات السطحية والبنيات العميقة، الإحالة تصنيف وقائع المعنى ، خطاب الخيال، العلاقات الدلالية بين الجمل، النص ، الأسلوب ، الزمن وكيفية اللغة ، زمن الخطاب ، التلفظ ، مقام الخطاب ، اللغة والفعل [30] .

إن الترتيب الهرمي السابق الذكر الذي قدم به ابن خلدون علوم اللسان نابع من قناعته المبدئية التي بنى عليها نظريته العامة في علم العمران ، الذي رأينا أنه اعتمد فيه على مبدأ النشوء والارتقاء ، إذ يرى أن أول ما ظهر هو علم اللغة (المعاجم) ، وتطور البحث اللساني إلى علم النحو ، الذي أدى تطوره بدوره إلى ظهور علم البيان (البلاغة) ، التي أدى تقدمها إلى ظهور علم الأدب ، وأخيرا علم الإعجاز . ويمكن أن نجري مقارنة بين الهرمين :

---

30 ـ انظر :

Todorov et Ducrot, Le dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, éd du Seuil , Paris 1972.

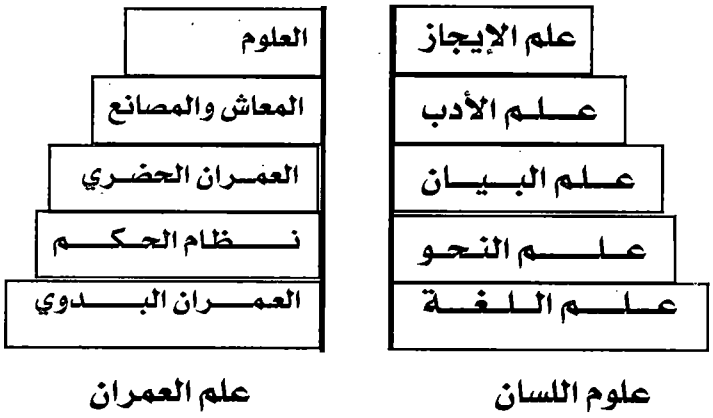

الخاتمة :

وهكذا، نلاحظ أن ابن خلدون كان وفيا لنظريته وللمنهج العام الذي اتبعه منذ بداية تأليفه المقدمة، حيث كان التفكير اللساني عنده امتدادا لنظريته العامة في علم العمران، ذلك أن العلوم اللسانية التي هي جزء من العلوم عند العرب ، تتفرع هي بدورها وفق مبدأ النشوء (أو التدريج على حد قوله) من الأبسط إلى الأكثر تعقيدا ، مثل ما تطور العمران من الأبسط (العمران البدوي) إلى الأكثر تعقيدا (العلوم) .

ومن جهة أخرى، فإن نظرة ابن خلدون لعلوم اللسان، من حيث المصطلحات ومن حيث الفروع والمستويات هي نظرة علمية دقيقة تتقاطع بشكل لافت للانتباه مع نظرة اللسانيات الحديثة ، مما يجعلنا نعتقد أنه كان رجلا متميز تجاوز عصره بكثير ، وكأنه كان يملك نظرة استشرافية ، سواء فيما تعلق بنظرية العمران أو تفكيره اللساني .

الجغرافيا والأدب
تقاطع المعارف البشرية (*)

أ.د مازن الوعر(*)

مظهر سطح الأرض ...منه خرجنا وإليه نعود

أبقوا على السطح فإليه تأتي كائنات الأعماق لكي تتنفس

هنري لوفيفر (اللسان والمجتمع)

مدخل

يعود الوصف الإيحائي المثير للأماكن الجغرافية والذي يقدمه الشعراء والروائيون بفائدة عظيمة على المهتمين بالأدب والجغرافيا على حد سواء. فهذا الوصف الذي يربط الإحساس بالمكان يمكن أن يفعل فعله في القارئ. فالجغرافي المثقف (Culturated) يدلل على وعيه ومعرفته بالتأثير الإنساني في الأماكن الجغرافية من خلال تحديد

* ـ أستاذ اللسانيات الحديثة بقسم الدراسات العليا، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.

* - William E.Mallory and paul Simpson- Hously (1987-pp209)Geography and Literature: Ameeting of Disciplines?Suracuse University press. New York.

تشكل هذه الدراسة النقدية للتفكير الجغرافي عند طبقة أهل الأدب فصلا من كتاب يقوم بإعداده صاحب هذه السطور وهو بعنوان: « **التفكير اللغوي عند الجغرافيين العرب في ضوء اللسانيات الجغرافية المعاصرة**».

هذه الصفات كصيغ حقلية ـ ميدانية، وكأشكال مستقرة وكشبكة من الأعمال الاتصالية.

وهذا يدل على أن الأماكن الجغرافية أكبر بكثير من كونها عناصر ومكونات فيزيائية على أرض الواقع... إنها تذهب أعمق من ذلك... إلى درجة لا يمكن بسهولة أن نقيسها. إنها تمتزج امتزاجًا نسيجيًا بالإنسان الذي خرج منها وإليها يعود. ويمكن لهذه الأماكن الجغرافية أن تكون مرتبطة بالسلوكات الحياتية والقيم الفردية والجماعية التي لايستطيع التقاطها وتصويرها على شاشة اللغة إلاّ الشعراء والروائيون الذين على حد تعبير سولتر (C. Salter) ووليام(L. William):

«يهتمون بكشف طبيعة التجربة الإنسانية أكثر مما يهتمون بشرح السلوك الإنساني والتنبؤ به... فهم بهذا يقدمون وصفًا إبداعيًا خلاقًا لجغرافية المكان وتضاريسه أكثر من معالجتهم لهذه الجغرافية معالجة موضوعية...علمية» [1]

لقد أكّد الباحث جان فريزر هارت (J. Fraser Hart):

«أن الصيغة الفنية العليا والمثلى التي يسعى الجغرافي إلى تحقيقها هي الجغرافيا الإقليمية الجيدة، ولكي يكون ذلك كذلك، فإن الوصف الإيحائي المثير سيسهّل الوصول إلى ذلك الهدف من خلال أعمال

1 - Salter, Christopher, and William,Lloyd (1976). Landscape and Literature. Association of American Geographers. Washington, D.C.

الشعراء والروائيين الذين يقدرون النظرة الأدبية العميقة لجوهر الأماكن أكثر من النظرة الجغرافية في صيغتها النثرية المملة» [2].

والحقيقة أن أكثر الأعمال الجغرافية الأدبية إنما هي متجذرة في الواقع، وأن هذا الواقع المتمثل في مظهر سطح الأرض كان ومايزال الشغل الشاغل للباحثين الجغرافيين الذين يمكن لمعرفتهم أن تساعد الجغرافيا الأدبية في تصويرها للواقع تصويرًا رمزيًا.

1ـ بحوث كتاب الجغرافيا والأدب: تقاطع المعرفة البشرية

إن البحوث المجمَّعة في كتاب:

(Geography and Leterature: A Meeting of the Disciplines)

لمحرريه وليام ملوري (W. Mallory) وبول سيمبسون ـ هاوسلي (P.S-Hously) تُعدُّ جهدًا متميزًا يمثل تقاطع المعارف البشرية والتقائها. وقد أسهم في هذا الجهد الطيب الجغرافيون ونقاد الأدب ثم الكتَّاب

---

2 - Hart, John Fraser (1982) «The Highest form of Geographer's Art» Annals of the Association of American Geographers, I. Washington, D.C.

المبدعون الذي أضفوا الملامح الأدبية والفنية والجمالية على المواقع الجغرافية [3].

لقد قدّم الباحثون هنا كل هذه المعارف البشرية بطرائق ومناهج مختلفة عالجت الواقع الجغرافي بتضاريسه ونتوءاته المختلفة.

واللافت للنظر في هذا الكتاب أن هناك تشابهات عديدة قائمة على علاقة البحث الواحد يبحث آخر والمؤلف بمؤلف آخر والمنهج المتَّبع بمنهج آخر. فكل هذه العلاقات المتشابهة تلتقي على أرضية عامة لتشكل المعارف البشرية المتقاطعة.

---

3 ـ يشبه هذا الإتجاه الغربي ماذهب إليه الشعراء واللغويون والمؤرخون والجغرافيون العرب في معالجتهم للمواقع الجغرافية معالجة تجعل بينهم نقاط التقاء وتقاطع وإن اختلفوا في المنهج والهدف، وقد سمى ياقوت الحموي في معجمه «البلدان» المشتغلين بالاتجاهات الجغرافية؛ الأدبية والتاريخية واللغوية «طبقة أهل الأدب». ويمثل الشعر العربي القديم ذروة الاستثمار المفيد لمظهر سطح الأرض (Landscape) الذي أصبح جزءًا لا يتجزأ من نفسية الشاعر العربي القديم الذي لوّن شعره بأطياف جغرافية عديدة إلى درجة جعل من الجغرافيا إنسانًا ينطق الشعر.

لمزيد من الاطلاع حول التفكير الجغرافي عند طبقة أهل الأدب يراجع:

أ ـ نصار، د حسين (1985) معاجم على الموضوعات «كتب المواضيع» (التراث الجغرافي اللغوي عندالعرب ص 75 ـ113) دراسات في التراث العربي: سلسلة تصدرها وزارة الإعلام في الكويت. مطبعة حكومة الكويت. الكويت.

ب ـ أن بُلَيْهد، محمد بن عبد اللّه. صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار. الطبعة الثانية . 1972م، السعودية.

ج ـ ابن منقذ، أسامة (488 ـ 584 هـ). المنازل والديار. تحقيق مصطفى حجازي. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ لجنة إحياء التراث الإسلامي. القاهرة، 1968 م.

د ـ القيسي، د. نوري حمودي (1984م) الطبيعة في الشعر الجاهلي. عالم الكتب ـ مكتبة النهضة العربية بيروت.

وأخيرًا يأمل القارئ لهذه البحوث المجمَّعة أن تسدَّ الفجوة القائمة بين الوصف الجغرافي الحقيقي والوصف الأدبي الخيالي المحلقّ، وبذلك نستطيع أن نقدّم للعالم، بشكله الجغرافي والأدبي، صيغة أكثر وحدة وانسجامًا.

والواقع أن قرّاء الجغرافيا والأدب سيجدون في هذه البحوث فوائد عظيمة ولاسيما الذين يتوقون لمعرفة الجغرافيا بكل فروعها الإنسانية والإجتماعية والثقافية والتاريخية. إن القارىء لهذه البحوث سيكون عارفًا بالعوامل البيئية (الخارجية) للتكوين الجغرافي الذي يثير ويحفّز النظرة الثاقبة للقيمة الإنسانية والفنية والجمالية للمكان.

وينطبق الشيء نفسه على قارئ الأدب الذي يمكنه أن يحصل على معرفة الأسس العملية لمعالجة الجغرافي للمكان المدروس والمقيّم علميًا. وبكلمة أخرى، إن عمل الجغرافي هنا دعوة مستمرة للواقع الفيزيائي الذي يعمل على إثارة الخيال المبدع عند الأديب، ذلك أن الشعراء والروائيين يستعملون الأماكن الجغرافية من أجل توصيل أنواع مختلفة من الأفكار بطريقة فنية وجمالية تجعل من الكون الصامت عالمًا ناطقًا ومتحركًا يمتزج فيه الحي بالجامد من أجل تشكيل وحدة فاعلة ومنفعلة في مسيرة التكوين الحضاري ذي الأبعاد الإنسانية.

انطلاقًا من هذه النظرة فإن الكتاب، ببحوثه المختلفة، محاولة لتنويع المصادر التي نعرف أطرها ومضامينها على نحو عميق. وهكذا فقد جمع الكتاب بحوثًا عدة لمؤلفين ينتمون إلى مختلف بقاع العالم من أجل أن يثيروا معرفة المكان المدروس والمقيَّم في الأعمال الأدبية.

2 ـ أقسام الكتاب

قُسِّم الكتاب إلى خمسة أقسام تعتمد على مناهج مختلفة لمعالجة الواقع الجغرافي في الأدب. هذه الأقسام فيها شيء من التداخل من حيث المحاور، والموضوعات، والمناهج التي يمكن أن تتكرر بين قسم وآخر.

ـ القسم الأول: الاتجاه المنطقي للدراسات الجغرافية الأدبية

إن هذا القسم الذي بحثه جيم وآين ميللر (J. Wayne Miller) يسجل الحالة الراهنة للجغرافيا والأدب. فهو يقدم الأسباب المنطقية من أجل دراسات جغرافية إقليمية أدبية تتناسب مع النظرة الكونية. فالباحث يميل هنا إلى المفهوم الذي يذهب إلى أن الدراسات الجغرافية ليست مجرد بقايا لحفريات قديمة لقولبة العالم ووضعه معايير محددة، بل على العكس من ذلك، إن تلك الدراسات الجغرافية تعدّ، وعلى نحو حيوي، مداخل إلى أنظمة معرفية عديدة، وجسرًا صالحًا للعبور إلى التراث الإنساني العظيم.

إن الإتجاه المنطقي الذي يقترحه ميللر يتطلب التأكيد على الدراسة الجغرافية كطريقة للتغلب على تجزئة التعليم من أجل تنمية الإدراك للحياة اليومية العادية، ومن أجل مساعدة الطلبة لكي يروا ظروف حياتهم كأمثلة تجسّد أفكارهم العامة.

ـ القسم الثاني: الاتجاه الواقعي لمظهر سطح الأرض

يتألف هذا القسم من بحوث واقعية لدراسة مظهر سطح الأرض في الأدب. يوضح الباحث كين ميتشال(K. Mitchell)، من منظور واسع، المحور المركزي الذي تتشعب منه الآداب الكندية، والإنكليزية، والأمريكية، بسبب الإختلافات البيئية بين هذه الآداب.

فهو ينفي أن عامل الانعزال والفصل هو الذي صاغ الأدب الإنكليزي وأن اكتشاف «جنة عدن المهجورة» (يقصد بها العالم الجديد لأمريكا) كان له التأثير الأول في الأدب الأمريكي، وأن معرفة الشمال المتميز بأجوائه وظروفه الصعبة هي التي سيطرت على الأدب الكندي وأثرت فيه.

وبالمقارنة الدقيقة لهذا التحليل حول الظروف المحلية للآداب، بتحليل بيتر برستون (P.Preston) نرى أن هذا الكاتب يثّمن ويقيّم صورة آرنولد بنيت (A. Bennett) لفن صناعة الفخار في خمس مدن صغيرة في الوسط الغربي لإنكلترا والتي تشمل ـ مجتمعة ـ منطقة تسمى بـ (Stoke - on - Trent).

إن روايات آرنولد بنيت تقدم تفسيرًا إيجابيًا لمظهر سطح الأرض الصناعي. فمجموعته الروائية لا تفهم على أنها جميلة داخليًا (العملية الفنية) وإنما خارجيًا (توظيف المكان) أيضًا، ذلك لأنه يرسم دلالاتها المعجمية والمجازية والإيحائية بمهارة فنان وأديب حاذق يجعلها مناسبة للقارىء.

أما الباحث سيزر كافيديس (C.Caviedes) فقد درس أهمية المكان والأسطورة والحلم كعناصر حيوية في الرواية المتميزة لـ مارسا آرجيوداس (M.Arguedas) والتي هي بعنوان «الثعلب (الماكر) من الأعلى والثعلب (الماكر) من الأسفل

(The fox from above and the fox below).

يقدم الباحث هنا كشفًا جيدًا لتحليل آرجيوداس لمجتمع البيرو. وبما أن الباحث كافيديس مختص بعلم الجغرافيا (مظهر سطح الأرض) فإنه يركّز على أوجه الرواية التي تعكس الحساسية والحدس الفطري الذي استعملته الروائية آرجيوداس لصياغة الواقع الجغرافي الواضح لمنطقتها. وبهذا نرى الباحث كافيديس يوسّع، من خلال دراسته لرواية آرجيوداس، مفهوم البعد المكاني والفضائي للجغرافيا ليشمل منطقة لم يلتفت إليها (حتى وقت قريب) الباحثون الغربيون إلاّ نادرًا.

ـ القسم الثالث: الاتجاه الجغرافي الجديد: جغرافية المصير

تعبر البحوث في هذا القسم أيضًا عن التفسيرات الواقعية للمواقع الجغرافية، ولكن من وجهة نظر مصيرية، أي التفسير الواقعي للأمكنة الجغرافية ذات العلاقة المصيرية بالإنسان.

يظهر هذا الإتجاه الجغرافي الجديد بوضوح في بحث سوزان روسوسكي (S. Rosowski)، وعلى استحياء وخفاء في بحث جون جريفن (J. Griffin)، وكموضوع فرعي في بحث آلس بول (A.paul).

فالباحثة سوزان روسوسكي تكشف المعرفة المكانية المصيرية عند الروائية ويلا كاثر (W. Cather) والملخصة في قولها: « إن الجغرافيا شيء مصيري ومميت في بعض الأحايين».

ولا عجب في ذلك، فقد بدأت الروائية ويلا كاثر بالكتابة حول جغرافية نبراسكا كقدر ومصير لا مناص منه هذا المصير يبقى غريبًا عن «مملكة الفن» التي حاولت الدخول إليها. وفي النهاية نرى الروائية كاثر تزوّج الأدب إلى الجغرافيا وتزفّهما فنيًا لتضفي درامية خاصة على المضمون المكاني ضمن ما يسمح المجتمع الإنساني من التحرك والعمل.

وفي عملها الروائي «ياللروّاد!» (O Pioneers!) نراها تصيب الهدف عندما جعلت من هذه الرواية احتفالية تدل على المقدرة الفنية التي تضفي على المنطقة الجغرافية شيئًا من الجمال التشكيلي رغم قدرها المحتوم.

أما جون جريفن فإنه يذهب في بحثه إلى أن الجغرافيا تستطيع أن تحدّد المصير الإنساني، وهذا ماعالجه في الروايات الكنتاكية (نسبة إلى ولاية كنتاكي Kentucky الأمريكية) عند الروائية هاريت أرنو (H.Arnow)، وهذه الروايات هي « درب الجبل (Moutian Path) و(مزمار الصياد) (Hunter's Horn)، و «صانع الدمى» (Dollmaker).

لقد وضعت الروائية آرنو هذه الروايات بطريقة درامية مضغوطة تدل على أن الجغرافيا تستطيع أن تحدد مصير المنطقة ومصير شعبها على

حد سواء. لقد صورت الناس هنا، معزولين ومجتمعين، على أنهم منهمكون في فرار زمني جماعي، كثقافة جغرافية تدل على نظام الحياة ونظام القيم التي تمر في عملية تآكل وذوبان على نحو تدريجي (الإيقاع السريع للحياة المعاصرة).

إن ثلاثيتها الروائية الكنتاكية تحاول أن توازي بين **الحقيقة والخيال** في عالم معاصر يتلاشى بشكل كامل وسريع أكثر من التلاشي البطيء للعالم القديم (الإغريق والرومان) (الإيقاع البطيء للحياة القديمة).

وهناك بحث أكثر عمقًا من الناحية الجغرافية المصيرية وهو للباحثة آلس بول(Alec Paul) يدور حول جغرافية روسيا في الأدب. فقد وجدت الكاتبة أن الصفات الجغرافية في قصص الكاتبين الروسيين ليرمونتوف (Letmontov) وتورغينيف (Turgenev) تعمل كعناصر مضادة لتغيير المشهد السياسي. فالأديب ليرمونتوف رأى المشاهد الرائعة للقوقاز على أنها ظروف مصيرية بيئية معينة يُقتلع الإنسان منها إقتلاعًا ويُبعد بحيث لايستطيع أن يكون فاعلاً فيها ولا متفاعلاً معها.

أما الأديب تورغينيف فقد عالج السهول الروسية في إطار من العلاقات المصيرية القائمة بين الإنسان والأرض. فقد كان حساسًا تجاه التغيرات الحاصلة في مظهر سطح الأرض والمرافقة لانحلال النظام الإقطاعي لملكية الأرض. إنها الإيديولوجية التي تقرر مصير الجغرافيا والتاريخ والإنسان.

ـ القسم الرابع: اتجاه دراسة مظهر سطح الأرض المدرك من العامة

ينعكس الشيء نفسه، حول الرؤى المتعلقة بالأماكن الجغرافية في الأدب، في القسم الرابع من الكتاب، والذي يبيّن الدراسة التجريبية المؤسسة على تراث العلوم الاجتماعية.

يوضح الباحث بوكوك (D.Pocock) هنا دور الأدب الخيالي في تجربتنا الفعلية وتوقعنا اللامحدود للمكان. وبكلمة أكثر تحديدًا، إنه يحلل العلاقة القائمة بين الكاتب والمكان والقارئ. فهو يركز على المكان المسمى (Haworth)، وهو موطن للكاتبات الأخوات (Brontes)، حيث يوضح بوسائل استبيانية معينة ردة فعل الحجاج على ضريح القديس الأدبي. إن المكان الرسمي، الصفة المركزية لضريح القديس نفسه، يتوافق مع الصورة الذهنية المستقبلة من المجيبين عن الاستبانة.

إن مقارنة الاستبيانات المختلفة حول مسألة التوقع، والخذلان وأمور أخرى في أذهان المجيبين تقترح أن الأسطورة المكناة، أي التأكيد على الدرامية على حساب المخالفة والضدية، تحمل قيمة بحد ذاتها.

وبكلمة أخرى... إن الجغرافيا المكانية هنا لها قواعدها وخلفياتها في الذهن البشري. إن استدعاءها من المثير الخارجي هو الذي يرهص الإنسان على تأطيرها على نحو فني وجمالي يذهب بها من الحقيقة الفيزيائية للواقع إلى الخيال الأدبي للأسطورة والرمز والتاريخ. وبهذا فإن الجغرافيا المكانية كعلم تصبح رمزًا أدبيًا في عالم الإنسان الأسطوري.

القسم الخامس: اتجاه دراسة الجغرافيا الرمزية والمجازية والسريالية

يضم القسم الخامس أربعة بحوث عن الرمزية والمجاز والسريالية في جغرافية المكان. تكشف الباحثة روسالي فيرمت (R.Vermette)، على سبيل المثال، المدارس الأرثية (نسبة إلى مدارس الملك آرثر الأدبية) لرومانسية القرن العشرين. إن الأدب هنا يقدم وظيفة فريدة للمكان والفضاء الجغرافي في العوالم الحقيقية والخيالية، جامعًا ومنسقا لخصائص طبوغرافية رمزية للأسطورة السلتية (نسبة إلى السلتيين وهم سكان انكلترا الأصليون Celtic people).

لقد بحثت الكاتبة هنا خصائص مظهر سطح الأرض: (التلال، الغابات، الأرض اليباب غير المسكونة...إلخ) وذلك لتحديد طبيعتها الواقعية والحقيقية ومن ثم لتحديد تفسيراتها الرمزية... ويدخل في هذا المجال أماكن أخرى مازالت موجودة في انكلترا.

أما الباحثة جين شامي (J. Shami) فقد درست استعمال الشاعر جان دوني (J. Donne) للمصطلحات الجغرافية استعمالاً مجازيًا من خلال نص شعري لمناطق الرجل في العالم. إن الخرائط، والطرق، والأجواء، والأعمدة، تصبح كلها مجازات في هذه المرحلة الصعبة. هذه الصور المتداخلة التي رسمها الشاعر دوني من خلال هذه المجازات تميز عمله الشعري وتسميه كوحدة قائمة برأسها، وتدل في الوقت نفسه على الجهد المستمر من أجل خلق حس خلقي يلامس التغير السريع للواقع الفيزيائي الجغرافي.

أما البحثان الأخيران فيعدان امتدادًا لاستعمال الشعراء والروائيين لجغرافية المكان من منظور رمزي ومجازي وسريالي.

لقد اختار لورانس جونز (L.Jones) مكانًا جغرافيًا واحدًا وسلط الضوء عليه. إنه بالتحديد (الـ Cliff دون اسم) في الرواية الثالثة للكاتب الروائي توماس هاردي (T .Hardy) وهي بعنوان: «زوجان من العيون الزرقاء» (Apair of blue Eyes). لقد طرح هاردي خمسة أوجه للمكان في هذه الرواية وهي:

الطبوغرافيا ـ البيوغرافيا ـ استعمال المصادر الأدبية ـ الإصطلاح الأدبي والتركيب ـ العلاقة بين الإصطلاح الأدبي والرؤية الخاصة لهاردي.

ويبدو أن الوجه الخامس للمكان معقد إلى حد ما، ذلك لأن معالجة الكاتب لأجواء البيئة تعكس تلمس الثقافة واستقبالها، تلك الثقافة التي ينتمي إليها الكاتب، وتعكس كذلك الوجه الشخصي لمزاجية الاستقبال عند الكاتب.

والواقع يستعمل هاردي في بعض الأحايين المجموعة الجغرافية الطبيعية على نحو فني ومزخرف ورفيع، ويستعمل في أحايين أخرى هذه المجموعة الجغرافية من أجل التأثير الرمزي ليعكس الحالات الشعورية والعاطفية للشخصية، ولكنه في بعض الأحيان، وعلى نحو دال جدًا وفي سياق حديثه عن (الـCliff دون اسم)، يستعمل المجموعة الطبيعية الجغرافية ليعبر بشكل كامل وحيوي عن رؤيته الشخصية هو.

وأخيرًا، ومن منظور المقارنة المختلفة، فإن بحث براين روبنسون (B.Robinson) عن جغرافية التقاطع بين الحداثة والسريالية والجغرافيا لا يعالج شيئًا محددًا بعينه، بل نجده ينغمس بعمق في النقد الأدبي المعاصر. فهو يحاول أن يقدم معنى المكان للكتاب السرياليين والمحدثين. إنه يطرح أسئلة حول استقبال المكان والفضاء وفيما إذا كانت الحركات تأتي على نحو إيحائي عندما نمتحن العلاقة بين الجغرافيا والأدب. فهناك معادلات مريحة تستطيع أن تنقلنا من الإصطلاحي (الجغرافيا كعلم) إلى اللاإصطلاحي (الجغرافيا التي ترغب في استعمال الأدب كمصدر من أجل أن تتحول إلى عالم فني تشكيلي حي). إن منهجه الإنساني يجمع على نحو سريالي مجازات الشكل من منظور الحداثة.

3 ـ اتجاهات جغرافية وأدبية حديثة في تقاطع المعارف البشرية

الواقع، وكما يذكر ملوري وهاوسلي، أن اختيار محاور هذه الأقسام وتجميع بحوث متعددة في أقسام محددة إنما كان اختيارًا وتجميعًا شخصيًا. فهناك محاور أخرى غير هذه التي ذكرت سجلها المحرران في الكتاب، فعلى سبيل المثال، إن التغيرات في معالجة مظهر سطح الأرض جاءت متشابهة في أمريكا (كاثر) وفي إنكلترا (بنيت) وفي روسيا (تورغينيف) وفي جنوب أمريكا (آرجيوداس).

والحقيقة يمكن للباحثين أن يختاروا معايير أخرى ومحاور أخرى من أجل أهداف تنظيمية معينة. وربما لا يكون هناك مبادئ تنظيمية تُفرض على الاطلاق، منذ أن كان كل بحث يقدم رؤيته من منظوره الخاص به وذلك لتوظيف الجغرافيا في الأدب.

واللافت للنظر في هذا الكتاب أن محرريه لم يضمنانه الاتجاهات الأكثر حداثة في معالجة الأدب لمنظور سطح الأرض خاصة وللجغرافيا الأسلوبية التي تجاوزت الجغرافية اللغوية لما للأولى من علاقات اجتماعية وإثنية وأنثروولوجية وثقافية.

أما جغرافية الأنوثة فإن غايتها، من خلال دراسة عدة كتابات أدبية قامت بها نساء تنتمي إلى مختلف الثقافات [4]، معالجة عدم المساواة والانصاف المستند إلى النوع في المجتمعات الانسانية، ثم صياغة مجتمع يقوم على التباين في الخبرات البشرية، ذلك لأن المرأة عضو فاعل في المجتمع ولكنها لا تحصل على حقوقها بشكل كامل على الرغم من أنها تقوم بتغيير مظهر سطح الأرض وتطويره بطرق مختلفة عن الرجل.

وهكذا فإننا نرى أن الأدب الجغرافي النسوي يركز على شخصية المرأة إنطلاقًا من اعتقاد الشعراء والروائيين أن المرأة هي الأفضل في تمثيل المرأة المبحوثة.

---

4 - Norwood, V.and Monk, J(eds):The Desert is No Lady: Southern Landscapes in Women's Writing and Art. Yale University Press, NewHaven, CT, U.S.A (1987).

«وبناء على ذلك فإن طريقة المعالجة الأنثوية للأسئلة التي يطرحها الجغرافي (في الأدب) هي تقنية خاصة بالمرأة. فهي تقوم بإعادة تجزئة معاني القوة وتفتيتها في المجتمع لصنع جغرافيا جديدة» [5] ... يوظفها الأدب لخدمة قضايا المرأة في العالم المعاصر.

ويظهر هذا الاتجاه في رواية « بيت اللهو» (The Housse of Mirth) للروائية الأمريكية إيدث وارتون (E.Wharton) [6]. فقد صورت فيها المرأة الغنية والمخدوعة ولكنها الجميلة جدًا والتي كانت ضحية للمجتمع الذكوري الذي اضطرها لأن تمارس أعمالاً خارجة عن أنوثتها وإنسانيتها الأمر الذي يؤدي بها إلى الموت.

والواقع لقد عكست الروائية وارتون شخصيتها في قصصها ورواياتها والتي كانت من خلالها تريد أن تغير وضع المرأة وبالتالي تستطيع بهذا التغيير أن تقلب صورة المكان الصامت والجامد ذي البعد

---

5 - لمزيد من الاطلاع على جغرافية الأنوثة يفضل الرجوع إلى: الدوبكات، د . قاسم (2004م) جغرافية الأنوثة كأحد الإتجاهات الحديثة في البحث الجغرافي». بحث قُدِّم في: **الندوة الثامنة لأقسام الجغرافيا في المملكة العربية السعودية 3 - 5 آذار / مارس 2004 م** . قسم الجغرافيا أم القرى، مكة المكرمة.

6 - Wharton. Edith (1993). The Housse of Mirth (Twentieth - Century Classic). Penguin, U.S.A.

المتناهي إلى صورة المكان الناطق والحي والديناميّ ذي البعد اللامتناهي. [7]

وأخيرًا فإن الجغرافية الأسلوبية هي اتجاه غربي حديث يكاد يكون في حكم العدم في الدرس الجغرافي الأسلوبي العربي.

يهدف هذا الاتجاه لدراسة التشكيل الأسلوبي، المتشكل طبقًا لمظهر سطح الأرض، في الشعر والرواية وبقية الأجناس الأدبية الأخرى.

ولعل الباحث الوحيد في العالم العربي والذي التفت إلى هذا الاتجاه وطبّقه على الأجناس الأدبية هو الدكتور سعد مصلوح والمتمثل في بحثه القيّم:

«من الجغرافية اللغوية إلى الجغرافية الأسلوبية» [8].

وموضوع الجغرافية الأسلوبية حسب رأيه دراسة التنوع الأسلوبي باعتبار جغرافية المكان (Landscape) وباعتبار أنواع الخطاب القانوني، الديني، العلمي، والرسمي، الأدبي...إلخ. وذلك لكشف التشكيل الأسلوبي على صعيدي العامل المكاني والعامل الجغرافي.

---

7 ـ لقد بدأت الدراسات الروائية العربية تتجه إلى كشف شعرية المكان وجماليته في الرواية العربية حديثًا. وأصبح المكان يوظف توظيفًا فعالاً في الأعمال الروائية الذكورية والنسوية. لمزيد من الاطلاع ينظر: حسين، خالد حسين (2000م) **شعرية المكان في الرواية الجديدة: الخطاب الروائي لإدوار الخراط نموذجًا**. كتاب الرياض ـ العدد (83) ـ الرياض. السعودية.

8 ـ مصلوح، د . سعد (1994 ص 10 ـ 36) «من الجغرافية اللغوية إلى الجغرافية الأسلوبية». **مجلة عالم الفكر**. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب والفنون والآداب. المجلد (22). العدد (3 و4). الكويت.

وتهدف الجغرافية الأسلوبية إلى دراسة توظيف التنوعات الأسلوبية في تشكيل أسلوبي فني وجمالي في الأجناس الأدبية.

وقد استشهد الباحث على ذلك بنموذجين تصنيفيين اثنين يعالجان محددات المقام والمقال. أول هذين النموذجين كان قد قدمه دافيد كريستال (D.Crystal) وديريك دافي (D.Davy) . أما النموذج الآخر فقد كان قدمه اينكفيست (Enkvist) وسنبسر (Spincer) وجريجوري (Gregory).

ومن الموضوعات التي تعالجها الجغرافية الأسلوبية مقارنة الأساليب وتقابلها في عملين آدبيين ينتميان إلى منطقتين جغرافيتين مختلفتين محليًا أو عالميًا.

إن العمل هنا يقوم على المقارنة بين السياقات المقالية والسياقات المقامية، وعلى النظر في الجهاز النحوي للتمييز بين نوعين من القواعد كلاهما موجود في اللغة، الأول هو قواعد الوجوب (اللغة العادية) والثاني هو قواعد الجواز (اللغة الأسلوبية).

إن الهدف من المقارنات الأسلوبية معرفة البنية التشكيلية للأساليب في عملين أدبيين ينتميان إلى بيئة جغرافية واحدة أو إلى بيئتين جغرافيتين مختلفتين. ويميز الباحث الدكتور سعد مصلوح هنا بين درجتين من التشكيل الأسلوبي؛

الأولى: التشكيل الأسلوبي بحسب محددات المقام يحكمها إطار العلاقة الجدلية بين الذاتي والموضوعي، وتتجلى في الممارسة اللغوية اليومية.

والثانية: تشكيل التشكيل في الأجناس الأدبية ولاسيما في الأنماط المركبة منها كالقصة والرواية والمسرحية.

إن الدراسة الحالية تعني بالتشكيل الأسلوبي الثاني الذي يسم عمل الشعراء والروائيين. ويتجلى هذا التشكيل في رواية «**مدن الملح**» للكاتب الروائي عبد الرحمن منيف [9]. فهذه الرواية تعكس تعددية الأساليب كنتيجة طبيعية لتعددية الأماكن الجغرافية. ويشعر القارئ لهذه الرواية وكأن الكاتب يبحث عن « تشكيل» يمثل جميع هذه الأساليب المختلفة والمتلونة والتي تناسب تلوّن مظهر سطح الأرض (Landscape) المعالج في الرواية.

إن رواية «**مدن الملح**» هي مشروع حقلي جغرافي تجريبي يسعى إلى رسم صورة مثلى للأسلوب منطلقًا من حضيض الأساليب الواقعية الجغرافية إلى قمة التشكيلات الأسلوبية المجردة التي ترحل بالإنسان من الحقيقة الجغرافية إلى خيال الأدبي المحلق.

وهذا يعني أن رواية «**مدن الملح**» هي تشكيل أسلوبي فني وجمالي مجرد يشبه المونتاج السينمائي الذي يجعل الواقع أكثر جمالاً وإنسجامًا بحيث يناسب الإنسان العربي أيًا كان موقعه في خارطة الجغرافية العربية.

---

9 ـ منيف، د. عبد الرحمان (2003 م) **مدن الملح**. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة العاشرة. بيروت ـ لبنان.

4 ـ من تقاطع المعارف إلى تقاطع الحضارات

بعد هذا العرض المتواضع لتقاطع المعارف البشرية بين **الجغرافيا والأدب** من وجهة نظر الباحثين الغربيين والتي عُرضت في كتاب : الجغرافيا والأدب، يمكن للمرء أن يتساءل: أين نحن من كل هذه التطورات العلمية الغربية التي أصبحت «موضة» يتلبسها الحداثيون العرب عندما يدرسون مفهوم **المكان** وقيمته في الأجناس الأدبية، الشعرية والروائية العربية مستشهدين بالباحثين الغربيين على صعيدي المادة الأدبية والمنهج العلمي؟!.

إن الحقيقة المفزعة التي يمكن للباحث النحرير والحصيف أن يستنبطها على نحو علمي ـ موضوعي ودون أي حماس عاطفي وبلاغي وتعصب قومي وديني تجاه تاريخه وهويته الحضارية، أن الحضارة الغربية الإسلامية العملاقة والرفيعة ماتزال تعاني من العقل العربي الحديث الذي لم يستطع، على المدى المنظور، أن يلامس إشعاعات الفكر في العقل العربي الإسلامي القديم. وهذه القضية تُعدّ في غاية الحساسية الفكرية بحيث يمكنها أن تؤدي إلى **انعطاف خطير** في تاريخ الفكر العربي، بحيث تبدو الصورة وكأننا أمام انهيار عربي حضاري يقودنا إلى صياغة تشكيل كيانات مجتمعية هزيلة تتفاعل، على نحو سريع، مع سياسة الاستهلاك الحضاري الوافد والغريب، ويبتعد بالتالي عن الركام المعرفي في الحضارة العربية الإسلامية، ذلك الركام الذي هو في جوهره مؤسس على سياسة الانتاج الحضاري.

وإلاّ مامعنى انحراف الباحثين والمفكرين العرب على اختلاف مشاربهم عما أسسه علماؤنا المسلمون المتقدمون حول مقاطع المعارف البشرية ليس في حقل الجغرافيا والأدب فحسب بل في حقول معرفيه أخرى أيضًا؟!

لقد كانت نظرة العلماء المسلمين في هذا الموضوع أشمل وأدق حين جعلوا الجغرافيا والتاريخ فرعين لعلم واحد أطلقوا عليه اسم **«علم الأدب»** كما هي الحال عند ياقوت الحموي في **«معجم البلدان»** حين أسمى الباحثين الذين يتعاملون مع الجغرافيا والتاريخ «طبقة أهل الأدب»؟!.

إن **المكان** بفضاءاته وتضاريسه المادية والإنسانية والموصوف على نحو تقني ممنهج وفي إطار فني وجمالي وخيالي، لا ترتقيه الآداب الأخرى، يتجلى بأدق تفاصيله وجزئياته في الشعر العربي القديم بمراحله المتعددة ولاسيما مرحلة الشعر الجاهلي الذي هو، في رأيي، أكثر فلسفة من التاريخ والجغرافيا. وهذا مادفع المحدِّث والصحابي ابن عباس رضي اللّه عنه لأن يقول، عندما كانت تواجه المسلمين مشكلة لغوية معينة في القرآن الكريم الذي هو رائعة الحضارة اللغوية العربية،:

«إذا تعاجم عليكم شيء في القرآن فعليكم بالشعر فإنه ديوان العرب».

النتيجة: أننا نحن العرب على اختلاف أديانا ومذاهبنا وعلى اختلاف توجهاتنا الإثنية والعرقية نبقى طلاب علم، نحتاج إلى دربة

وممارسة وإلى رواية ودراية لا لمعرفة **قراءة** التراث الإسلامي فحسب، بل لمعرفة كيفية **فهمه** أيضًا ثم وضعه في مكانه المناسب في خارطة التراثات الحضارية العالمية القديمة والحديثة وذلك من أجل تقاطع حضاري عالمي وشمولي يخدم الإنسان والإنسانية.

والله أعلم ،،

رسائل جامعية

مناقشة رسالة

«ظاهرة التصويب اللغوي من خلال كتاب (شرح الفصيح) » لابن هشام اللخمي 577 هـ

تحقيق ودراسة للباحث عبد الكريم العوفي

إن موضوع هذا البحث الجامعي تقدم به الباحث عبد الكريم العوفي لنيل شهادة دكتوراة الدولة في الدراسات اللغوية من قسم اللغة العربية وآدابها كلية الآداب واللغات جامعة الجزائر .

الإطار العلمي للبحث : يتصل موضوع هذا البحث بالتراث اللغوي، ويعنى بوجه خاص بظاهرة (التصويب اللغوي) وأخال أن لهذا الموضوع أهمية بالغة في حياة أمتنا وهي تحيى حاضرها هذا الذي يموج بالعلل والأدواء اللسانية، مما يجعلها في أشد الحاجة إلى هذا الدواء التصويب اللغوي) لإبراء ألسنة الكثيرين من أبنائها مما تعاني منه في هذا الجانب من اعتلال واختلال ، وما أحوجنا اليوم إلى مثل هذه الأبحاث للإسهام في تصويب ما أصاب ألسنتنا من أدواء ، والمحافظة على سلامتها من العاهات اللسانية، في وقت استفحلت فيه أمراض العجمة واللكنة والرطانة! وأي أمر يكون أعظم شأنا عند الأمم الحية مما يعضدها في تحصين جنسيتها اللغوية والمحافظة على هويتها الحضارية ..؟

وتود هذه الكلمة أن تقترب مما دار في تلك الجلسة العلمية من نقاش ، ويمكن أن يتركز الحوار لإجلاء ذلك في هذه المحاور :

أولا- العربية بين السلف والخلف :

إن الذي يشهد أعمال هذه الجلسة العلمية يدرك أن توالي الأحقاب لن يزيد خبرة المتتبع لحركات البحث في حقل تراثنا اللغوي إلا عمقا بما يزخر به ذلك التراث من كنوز تنقضي الأيام وما ينقضي ما كشفت عنه عبقرية السلف مما يتميز به لساننا العربي من خصائص وأسرار..ومع ذلك ترى بعض الخلف زاهدين في لغتهم ، والهين بغيرها . فمن لناشئة الأمة من يشفيهم من هذه الأدواء ويبرئهم من هذه العلل، علل الانبهار بما عند الآخرين ، ويؤصل في قلوبهم لأسباب الحب والاعتزاز والتعظيم لمقومات شخصيتهم ومعطيات حضارتهم .؟

ثانيا- أعضاء اللجنة المناقشة :

تتكون لجنة مناقشة هذه الرسالة من الأساتذة الدكاترة التالية أسماؤهم : مختار نويوات رئيسا جامعة عنابة، عبد الله بوخلخال مقررا جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة، عبد الكريم البكري عضوا جامعة وهران ، محمد حسين الأعرجي عضوا جامعة الجزائر .

ثالثا - افتتاح الجلسة :

كان أول المتدخلين الأستاذ نويوات رئيس اللجنة الذي افتتح أعمال الجلسة ثم أحال الكلمة إلى المشرف الأستاذ بوخلخال فاستهل حديثه بالإلماع إلى أن علاقته بهذه الرسالة لا تتجاوز حدود الصلة الإدارية ، أما المشرف الفعلي فهو الدكتور صبيح التميمي من العراق الشقيق ، وكان يعمل بجامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة ، ثم غادرها وتعذر عليه الحضور للقيام بدوره في هذه الجلسة العلمية . وبعد هذه المعلومة انتقل الأستاذ بوخلخال إلى التعريف بالباحث .

ثم أحال رئس الجلسة الكلمة إلى صاحب الرسالة ليعرف هو بدوره ببحثه ، فأخذ الكلمة ومضى يبسط القول في جوانب بحثه ، مستهلا ذلك بالحديث عن خطته فأوضح أنها تتكون من قسمين رئيسين : أولا- التحقيق ، ثانيا - الدراسة ، وأشار إلى أن الدراسة تقع في تمهيد وثلاثة أبواب، تسبقها مقدمة وتعقبها خاتمة، وذكر أن التمهيد يتناول البيئة العامة في الأندلس والمغرب في عصر ابن هشام (القرن السادس)، وأما الباب الأول فقد تضمن ترجمة ابن هشام والتعريف بآثاره في فصلين.

وعالج الباب الثاني الفصيح وشروحه في فصلين أيضا ، وأما الباب الثالث وجاء في ثمانية فصول فقد كان صلب البحث وقد أوقفه الباحث على دراسة الكتاب موضوع البحث من حيث مادته ومنهجه وقضاياه ، ثم تحدث صاحب هذه الرسالة عن المنهج الذي اعتمده في هذه

الدراسة ، فذكر أنه أخذ بالمنهج الوصفي التحليلي مع الإفادة من بعض المناهج الأخرى . ثم تطرق إلى مصادر البحث فأشار إلى أنها متنوعة مخطوطة ومطبوعة: (كتب التراجم والطبقات، كتب اللغة والمعاجم، الدواوين الشعرية ، الدراسات الحديثة ، المقابلات الشخصية) . ثم ألمع إلى الصعوبات التي اعترضت طريقه أثناء فترة البحث فذكر منها : صعوبة الحصول على المخطوطات ، مما اقتضى منه الارتحال إلى عدد من بلدان المغرب والمشرق ، وختم كلمته هذه بإجمال الحديث في نتائج البحث .

رابعا ـ الدكتور البكري ومواصفات التحقيق :

ثم جاء دور الأستاذ البكري فاستهل تدخله بالثناء على الرسالة والتنويه بجهود صاحبها وحسن إلمامه بصنعة التحقيق ، بما يخول له مكانة حسنة في عملية دراسة التراث اللغوي وإحيائه ، ثم انتقل إلى تسجيل بعض الملاحظات ، يمكن إجمالها فيما يلي :

1 ـ إن عملية التحقيق تقتضي ممن ينوي الاشتغال بها مزيدا من العناية بعناصر التمحيص والتوثيق وحسن الإخراج ، ولا يكفي في الإخلال بهذه الجوانب التعلل بنقص الإمكانات التقنية في هذا الميدان . . .

2 ـ إن الباحث لم يخصص جهدا ملموسا في دراسة شخصية ابن هشام صاحب كتاب موضوع البحث ، ووضعها في إطار اتجاه علمي

معين يحسن تحديده : كأن يكون : لغويا أو معجميا ، أو نحويا ... بما يبرز ملامحه العلمية المتميزة والآفاق التي يندرج فيها من بين ما يندرج فيه علماء المغرب والمشرق .

3 - لم يعن الباحث العناية المطلوبة في هذا الحقل بدراسة المصطلحات التي استخدمها ابن هشام في كتابه موضوع البحث.

وختم الدكتور البكري مناقشة الباحث فيما جاء في رسالته ، بالتأكيد على أن هذه الملاحظ لا ترقى إلى النيل من القيمة العلمية لهذا البحث القيم .

خامسا - الدكتور الأعرجي والمزاوجة بين الجانب التاريخي والجانب اللغوي :

ثم أحال الدكتور نويوات رئيس الجلسة الكلمة إلى الأستاذ الأعرجي فاستهل مناقشة الباحث كسابقه الأستاذ البكري بالتنويه بالبحث وصاحبه ، معربا عن عميق شعوره بأن يشهد اليوم ميلاد محقق جديد، ثم انتقل إلى الإشارة بأن مناقشته ستتركز بوجه خاص في جانبين اثنين هما : الجانب التاريخي والجانب اللغوي بإبراز ما وهم فيه ابن هشام ، وما وهم فيه الباحث في فهم ابن هشام ، ومضى على هذا الطريق يسبر أغوار الرسالة - المتن والدراسة - في نظرات عميقة ودقيقة، كان يتتبع فيها مسيرة ابن هشام خطوة خطوة ويحلق في آفاق تحليلاته وأبعاد استنتاجاته، كما كان يستوقف الباحث بين الفينة والأخرى

للمناقشة وتصويب الرأي في هذه القضية أو تلك، فاستغرق الحوار لذلك بين الأعرجي من جهة ، وبين ابن هشام والعوفي من جهة أخرى أطول فترة ، في هذه الجلسة العلمية الأكاديمية ، كما غطى هذا الحوار مساحة واسعة شملت عدة جواتب من المتن والدراسة (ملاحظ منهجية، تصحيفات لغوية، استدراكات تاريخية) .

وعودا على بدء ختم الأستاذ الأعرجي مناقشته للباحث بالتأكيد ثانية على القيمة العلمية لرسالته .

سادسا ـ الدكتور نويوات وهاجس إحياء التراث اللغوي :

تم جاء دور الأستاذ نويوات رئيس لجنة المناقشة ، فألمع في مستهل كلمته إلى ضيق ما تبقى من الوقت ، مما يستدعي أن تكون مناقشته شديدة التركيز ، ثم شرع في مناقشة الباحث في جملة من القضايا التاريخية والمسائل اللغوية الدقيقة من بينها :

1 ـ إغفال الباحث توضيح مفهوم ابن هشام للفظ (العامة) في حديثه عن لحن العامة ويوضح الأستاذ نويوات أن مفهوم لفظ (العامة) يطلق اليوم على عامة الشعب، بينما كاب بالأمس يعني عامة العلماء والفقهاء والفلاسفة والأدباء ..، كما تنص على ذلك تطبيقات الزبيدي والجاحظ وغيرهما من العلماء المتقدمين ، وإن أول من أطلق لفظ (الخاصة) على جمهور العلماء هو (الحريري) .

2 ـ **ظاهرة الترادف :** يميل الباحث إلى الاعتقاد بوجود المترادفات في العربية ، والصواب غير ذلك ، فلفظة (جلس) غير (قعد)، وهذه الألفاظ: (القمح ، الحنطة، البر..) ليست ـ كما يراها بعضنا ـ مترادفات، وإنما هي لهجات .

3 ـ **ظاهرة الاشتقاق :** إن إفادة اللغات بعضها من بعض ظاهرة شائعة بين لغات الأمم منذ القديم ، ولا حرج في ذلك ، غير أن بعض القدامى كان لا يدرك الصواب أ حيانا في اشتقاق بعض الكلمات ، وخاصة الدخيلة منها، ويمثل الأستاذ نويوات لذلك ببعض اشتقاقات ابن هشام نفسه كقوله: إن (العربون) مشتق من (عرب) والصواب أن الكلمة ليست عربية أصلا. ومضى الدكتور نويوات في نظراته هذه العميقة الدقيقة على هذا النسق، فتناول كثيرا من المسائل العلمية، وعالج بالتصويب والتحقيق ما ليس بالقليل منها ثم أنهى تدخله بعبارات التنويه بالبحث وجهود صاحبه فيه .

سابعا ـ الدكتور بوخلخال والبحث عن الغائب الحاضر :

وجاء أخيرا في خاتمة قائمة المتدخلين من أساتذة هذه اللجنة المناقشة دور الأستاذ بوخلخال (المشرف إداريا)، وإذا كان من سبقه على هذه المنصة قد شكا من ضيق الوقت المتبقي له ، فماذا عساه هو أن يقول ، والساعة تشير إلى الثانية ظهرا ، وزملاؤه الذين سبقوه قد حصدوا طلائع الغلة وأتوا علو معظم الاستدراكات الممكنة ؟ ولم يجد

الأستاذ بوخلخال في هذه الحال بدا من الالتجاء إلى ظاهرة الاختزال والتكثيف لآرائه، فاستهلها بالإفصاح عن تمنياته لو أن الأستاذ(صبيح) المشرف الأصلي على هذه الرسالة كان حاضرا في هذه الجلسة لشهد بنفسه ثمرة توجيهاته التي أسداها لتلميذه الذي استطاع أن يشرفه ببحثه القيم ، ثم انتقل إلى تسجيل بعض الملاحظ من بينها :

1 ـ غموض الرؤية في التمييز ما بين بعض الظواهر الصوتية والصرفية والدلالية ..

2 ـ اضطراب في ترتيب بعض مصادر البحث .

3 ـ التأكيد على أن اكتشاف دراسة الدكتور مهدي عبيد جاسم التي سبق بها الباحث العوفي إلى الموضوع المعالج لا يقلل من القيمة العلمية للرسالة ما دام صاحبها لم يكرر غيره وأتى بما لم يأت به من سبقه إلى هذا الباب ، ثم ختم كلمته بما تواتر على ألسنة جميع أساتذة اللجنة المناقشة من وجوه الثناء على البحث وصاحبه .

ثامنا ـ الخلاصة :

رفعت الجلسة في أعقاب هذه المناقشات للمداولة بين أعضاء اللجنة وبعد برهة رجعت اللجنة إلى المدرج لتعلن على الملأ فوز الباحث العوفي بشهادة دكتوراه الدولة في الدراسات اللغوية بدرجة (مشرف جدا) مع تهنئة اللجنة ..فإلى الباحث الدكتور عبد الكريم العوفي أخلص التهاني وأصدق التمنيات بالتوفيق في مواصلة المسيرة

على هذا الطريق، إحياء لتراث أمتنا وتأصيلا لقيمه في النفوس وفي السلوك، وفي مختلف وجوه حياتنا.

9 ـ ملاحظ عامة:

ونخلص في ختام هذه الكلمة إلى تسجيل هذه الملاحظ :

1 ـ ستغرقت هذه الجلسة العلمية وقتا طويلا قارب الخمس ساعات، وكان الباحث طوال هذه المدة هادئا رصينا واثقا من إمكاناته النفسية والعلمية ، فجاءت إجاباته وتعقيباته على الأسئلة والتدخلات المطروحة دقيقة ووجيزة وهادئة وهادفة .

2 ـ كانت لهجة النقاش والحوار بين الطرفين (أعضاء اللجنة من نحو، والباحث من نحو آخر) متزنة ومرنة ومسالمة ، مما أضفى على سير المناقشة جوا علميا هادئا خاليا من أدنى مظاهر الإثارة والإحراج ، على خلاف ما كانت تشحن به أحيانا بعض المناقشات العلمية المماثلة على المنبر نفسه من مظاهر الاستفزاز والمماحكات من بعض ذوي النفوس المريضة.

3 ـ ظل الحضور يتابع بكل صبر وانسجام وإعجاب فقرات تلك الجلسة العلمية حتى نهايتها ، بالرغم من طول فترة النقاش وجفافه وبرودته أحيانا، وخلوه من القدر اللازم من حرارة الانفعال الهادف ، مما يعود بعضه أو كله لطبيعة القضايا العلمية المعالجة أثناء هذه الجلسة .

4 ـ لعل الميزة العامة التي طبعت تدخلات الأساتذة المناقشين في هذه الجلسة بدون استثناء ظاهرة التنويه بالبحث والثناء على جهود صاحبه وعلى روحه العلمية وشجاعته الأدبية ، ولا شك أن مرد هذا الإجماع في الحكم على البحث ، إنما يعود إلى ما ارتقى إليه في قيمته العلمية الذاتية ، وقد يرجع شيء من ذلك إلى طبيعة الموضوع المدروس الذي يتصل بإحدى مقومات شخصية الأمة (اللغة العربية) ، وقد يكون القصد من بعض ذلك توجيه رسالة تشجيع إلى الباحث ، ومن خلاله إلى كل من ينهج نهجه ويرمي رميه من الباحثين ، ترغيبا لهم على الاقتداء به والسير على طريقه في مدارسة التراث والعمل على إحيائه ، توثيقا للروابط بين ماضي أمتنا وحاضرها ، وتشييدا لآفاق مستقبلها ، وإعلاء لكلمتها ، وسموا بمكانتها بين الأمم الحية .

5 ـ إن الذي يشهد هذا اللقاء العلمي ويلمس من خلاله بعض ما يلاقيه الباحثون في طريقهم من عناء ، وبعض ما يعترض سبيلهم من عراقيل ومثبطات ، إن هذا المشاهد الذي يعيش هذه الحقائق ويعي أبعادها ، لا يسعه إلا أن يقدر موقف هؤلاء الباحثين وهم يرون أعمالهم التي سهروا الليالي على إنجازها طوال أعوام وأعوام ، تراوح مكانها أمدا من الدهر ليس بالقصير في دهاليز دور النشر دون أن تقدر على أن تبرحها نحو أهدافها في الإسهام فيما ينهض بواقع الأمة ويعزز خياراتها ويعضد مواقفها في بناء حاضرها ومستقبلها على النحو الذي تريد، وليس على النحو الذي يريد أن يراها عليه الآخرون .

6 ـ إن الشاهد على هذه الحال لا يملك أمام هذه المعاناة غير ما يجود به الوجدان من عواطف التعجب من نحو ، ومشاعر الاستغراب من نحو آخر ، فيدفعه ذلك إلى هذا السؤال ، متى تشهد عملية الطباعة وحركة النشر في بلادنا انطلاقتها الجادة الفاعلة للإسهام في نشر أعمال الباحثين وإخراجها من دائرة الظلام والنسيان ، مما قد يشجع أصحابها على المزيد من بذل الجهد في هذا الحقل ، خدمة للوطن والأمة ، ولا يكفي في ذلك أن تبقى جهودنا تجاه مقابل معاناة الباحثين مقصورة على المناسبات والحملات والمجاملات .. ثم تقلب الصفحة ويطوى السجل ، منتظرين فرصة أخرى قادمة حتى نهرع إلى ذاك السجل من جديد ونفتحه منيبين إلى عادتنا القديمة: حملات .. ومناسبات ..ومجاملات .. ويبقى الحال على ذلك الحال .. أعواما وأعواما !؟

7 ـ إن القضية تحتاج إلى موقف جاد يتكافأ مع ما يبذله جمهور العاملين من جهود في حقول المعرفة و العلم والفكر والأدب وغيرها من وجوه النشاط الوطني من نحو، وما ينتظر منهم الوطن والأمة من نحو آخر ، من إسهام فاعل في النهوض بهما نهضة علمية شاملة تخرجهما من التخلف والتبعية ، وتمكنهما من المناعة والحصانة من مخاطر التحديات الوافدة ..وتدفعهما على طريق الرقي والرخاء والاستقرار .. والله يبارك العمل الصالح ويجزي به .

د . محمد ابن سمينة

جامعة بن يوسف بن خدة الجزائر

طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية
وحدة الرغاية، الجزائر
2007
Achevé d'Imprimer sur les Presses
ENAG, Réghaïa
- Algerie -
Bp. 75 Z.I. Réghaïa Tél. : 021 84 80 10/84 86 11

الإيداع القانوني : 2005–1513
ISBN : 1112-65-23